15em Année No. 723

Lundi — 12 — 5 — 1947

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٧٢٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢١ جمادي الآخرة سنة ١٣٦٦ — ١٢ مايو سنة ١٩٤٧ » السنة الخامسة عشرة

لوازم الحـــديث

للأستاذ عباس محمود العقاد

كان الحديث عن آقاك الأرمنى الذى قيل إنه طبيب روحانى يشفى الأمراض المستعصية ويلمس المريض مرة أو مرتين فينهض سليما معافى .

وكان المتحدث رجلا يصدق من الغرائب والفارقات بمقدار ما فيها من مفاجأة الناس ومصادمتهم بالمستبعد المستغرب من الأمور ... له فى الحـديث لازمة هى كلمة « لا » النافية . يقولها عشرين أو ثلاثين مرة فى الجلسة الواحدة ، ويقولهـا لمن يوافقه ومن يعارضه ، ولمن يقبل كلامه على علاته ومن يرفضــه « على طول الخط » كما يقولون . ويخيل إليك وأنت تستمع إلى حديثه أنه يفضل إنـكارك كلامه على موافقتك وتأمينك . لأن الإنـكار يفتح له باب الجـدل والاستمتاع بتلك الـكلمة المحبوبة لديه ، البغيضة إلى الناس أجمعين ، وهى كلمة « لا » النافية ومرادفاتها فى اللغة العربية .

قال : إن آقاك شفى مشلولا كسيحا لا ينهض على قدميه .

قالها والتفت إلىّ متوقعاً أن أنـكر منه هذا الخبر ، وأجزم باستحالته أو استبعاده .

فخيبت ظنه وقلت : يحصل . نعم يحصل وقد حصل فى الزمن القديم وفى هــذا الزمن . وقد حصل على أيدى الأطباء الذين لا ينتحلون لأنفسهم قدرة روحانية ولا كرامة من كرامات الأولياء . وحصل فى عهد العباسيين قبل هذا العهد الحاضر الذى عرف الناس فيه علم العلاج النفسانى وسلكوه فى عـداد العلوم الطبيعية . وذكرت قصة الجارية التى كان الرشيد يحبها فرفعت يدها ذات يوم فبقيت منبسطة لا يمكنها ردها ، وعولجت بالتمريخ والدهن فلم ترجع يدها إلى حركتها . فلما استدعى ابن بختيشوع لعلاجها قال للرشيد : إن لم يسخط علىّ أمير المؤمنين فلها عندى حيلة : تخرج الجارية إلى ههنا بحضرة الجميع حتى أعمل ما أريده. فأمر الرشيد بالجارية فأحضرت ، وأسرع إليها الطبيب وأوثق يدها الطليقـة وأمسك ذيلها كأنه يريد أن يكشفها . فانزعجت الجارية وبسطت يدها المعتقلة إلى أسفل . وكان ذلك شفاءها .

هذا وأشباهه جائز فى الطب مشاهد فى الواقع ، والمعول فيه على استفزاز القوى الحيوانيـــة من طريق المؤثرات النفسانية . فإذا كان آقاك يملك القدرة على استفزاز هـــذه القوى فى نفوس معتقديه فلا مانع عقلا أن يشفى بعض الأمراض بهـــذا النحو من العلاج .

وليس المهم فى مقالنا هذا هو حديث آقاك الأرمنى وإن كان حديثه ليجرى الآن على كل لسان . وإنمـا المهم « لا النافية » على لسان صاحبنا الذى آمن بآقاك ليقولهـا ويسمعها من سامعيه ! .. فقد ظننت أننى أخذت عليه الطريق وانتزعت هذه الـكلمة من بين شدقيه . فإذا هى والله أول كلمة علق بها على هذه

القصة ، وإذا به يفتح فاه ليقول : لا . ليس هذا قصدى …

قلت : لا . بل ينبغى أن يكون هذا قصدك . ماذا تعنى أيها الرجل « بلا » هذه التى تفجأ بها الناس موافقين أو مخالفين ؟ قلت إن آفاتك يشفى الرضى فقلنا لك : يحصل . فأين موضع « لا » هنا لا حرمك الله سماعها من كل لسان ؟

فانقبض واستخزى . وكانت عنـده بقية أدب فى الخطاب فقال معتذراً : والله إنها لازمة . ولازمة ذميمة والحق يقال . ولـكن ما العمل فى العادة وسيئاتها قبحها الله !

وخطرت لى لوازم الـكلام عند أكثر المتحدثين ؛ فسألت نفسى : أيها يارى خير وأفضل . « لا » هذه التى تقال فى كل جواب ؟ أو « نعم » ومرادفاتها التى تعود بعض الناس أن يعقبوا بها على النقيضين فى مجلس واحد ؟

— حبذا لو خلت مصر من الأحزاب .

— صحيح .

— ولـكن الأحزاب ضرورية فى الأمم الديمقراطية .

— صحيح والله !

— إلا أن الديمقراطيـة قد تستغنى عنها فى بعض أوقات التطور والانتقال .

— معك حق . فهذا صحيح .

فـكم من المتحدثين يستمع إلى أمثال هـذا التعقيب فى كل يوم وبين كل طائفة من الناس ؟ وكم تسومهم هذه الموافقات وهم ينتظرون الشجاعة الأدبية من ذوى الرأى فـلا يرون بينهم وبين الجهلاء الإمعات من خلاف ؟

إن كانت هناك « نعم » شر من « لا » فهذه النعم شر من جميع اللاءات وجميع أدوات النفى على الإطلاق .

ومن اللوازم ما هو أعجب من الموافقة والإنـكار على هـذا المنوال ؛ لأنها لازمة تلق على المستمع تهمة لا ذنب له فيها ولا مناص له من دفعها .

تلك هى لازمة « على رأيك » عند بعض الناس .

يحدثك عن رجل لا تعرفه ولعلك لم تذكره قط فى حياتك ، فإذا به يقول : « على رأيك إنه رجل لئيم » … ويمضى فى تحميل رأيك المظلوم تبعات هجائه وإيحائه وأنت لم تر شيئا ممـا اتهمك برؤيته ، ولم يفكر هو بعقله فى إسناد التهمة إليك وإنما جرت التهمة « البريئة » على لسانه من حيث لا يريد .

وحضرت مجلساً فيه واحد من أصحاب هـذه اللازمة وهم غير قليلين . فصرخ أحد السامعين الذين اتجه إليهم الحديث مستغيثاً :

يا شيخ حرام عليك ! متى وصفت الرجل بهذه الصفات؟وهل هو رأيك أو رأيى الذى تحـكيه وترويه ؟

وضحك صاحبنا وكان ظريفاً حسن التخلص . فراح يقول : هو التواضع يا فلان . هو التواضع . وهل يليق بأدب الحديث أن أقول : هذا رأيى ! هذا رأيى ! فى كل ما أرويه وأحكيه ؟

ومن اللوازم ما يبعث الضحك ولا يبعث الفزع كهذه اللازمة التى يلازمها الابهام ، بل قد يضحك الحزن إذا غلبت عنده روح الفـكاهة على روح الجد والصرامة .

من هذه اللوازم لازمة كانت لأحد القضاة المشهورين يرددها وهو ذاهل عمـا يسمع وذاهل عمـا يعنيه . وهى لازمة « براقو براقو » التى يتخلص بها من التفـكير فيما يقول .

ولقى شاباً كان يعرف أباه فسأله : أين أنت الآن ؟ قال : موظف فى هذا الديوان …

قال : براقو براقو . وأين أبوك ؟

قال : تعيش … مات منذ شهور .

فلم يلبث أن حيا أباه تحية الاستحسان المعهودة . لأنه مات !

لـكن اللازمة البغيضة حقاً تلك اللازمة التى تضطرك إلى الجواب على كل فقرة من فقرات الحديث كأنك فى محضر تحقيق

— أخذت بالك ؟ « فاهمنى ؟ » ؟ .

ولا بد من الجواب ، ولا بد من انتظاره جواباً ملفوظاً لا يغنى عنه الإيماء ولا السكوت .

ومن هؤلاء من يبدى لك الرأى ثم يسألك :

هل أنا غلطان ؟

فتقول مثلا : معاذ الله . بل أنت على صواب .

فلا يكتفى بذلك ويعود سائلا : إن كنت غلطان قل لى .

هل أنا غلطان بالله ؟

— لا لست بغلطان .

من معجزات القرآن

تفسير الآيات الأولى من سورة الروم

للدكتور عبد الوهاب عزام بك
عميد كلية الآداب

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

لم ينزل القرآن للأخبار بانتصار الروم فقط، بل للأخبار بأن الأمر كله لله وأنه سينصر المسلمين على ضعفهم وقلتهم فى بضع سنين كما ينصر الروم. فتبشير المؤمنين بنصر الله لم يأت فى الآية تبعاً كما يوحى كلام المفسرين بل كان الأخبار بانتصار الروم تمهيداً للتبشير بنصر الله المؤمنين. والاخبار بغلبة الروم وحده فيه معجزة واضحة، وبيان لصدق النبوة ولكنه مع هذا لم يكن القصد الأول من نزول الآية الكريمة.

وينبغى أن نذكر هنا أنه حينما تمت الغلبة للروم وذهب هرقل إلى بيت المقدس فى أعقاب ظفر توالى من القسطنطينية إلى بيت المقدس فى ذلك الحين ذهب جيش إسلامى صغير إلى البلقاء — التى تسمى اليوم شرق الأردن — فحارب جيشاً من الروم والعرب؛ وتلك الوقعة المعروفة فى التاريخ الإسلامى باسم غزوة مؤتة. وقعت فى السنة الثامنة من الهجرة، وهذه الغزوة التى لم يبال بها هرقل ولعله لم يسمع بها كانت فاتحة الغزوات الإسلامية التى نزعت الشام من سلطان هرقل وجعلته يقول وقد يئس من الشام: سلام ياسورية سلاماً لا لقاء بعده. ولم يكن بين تمام الظفر لهرقل وبين تمام الهزيمة عليه فى الشام وتسلط المسلمين عليها إلا بضع سنين، فبين غزوة مؤتة وبين واقعة اليرموك ست سنوات من السنة الثامنة بعد الهجرة إلى السنة الرابعة عشرة.

لله الأمر من قبل غلبة الفرس على الروم ومن بعدها بل له الأمر قبل كل شيء وبعده لاشريك له فى سلطانه. وبأمره غلب الفرس على الروم عشرين عاماً ولاء، ثم أديل للروم فى بضع سنين ثم أديل للمسلمين على الروم فى بضع سنين أخرى.

— لا لا. إن كنت غلطان فقل لى ولا تخف الحقيقة عنى. إننى رجل صريح. أليس هذا الواجب؟

ويكررها: أليس هذا الواجب؟ أليس هذا الواجب؟ حتى تفض المشكلة بقسم غليظ ... فيصدق أنك قد آمنت بأنه ليس «بغلطان».

وقد تكون اللازمة التى من هذا القبيل عقلية تأتى من نقص الوعى والإدراك ولا يقف بها الأمر عند حب التكرار والإعادة مع فهم الحديث المعاد.

تسأل أحدهم: هل لقيت فلاناً؟

فإذا هو قد أعد كلة الاستفهام فى منتصف السؤال وبادرك مستفهماً: نعم؟

— هل لقيت فلاناً؟

— فلاناً؟

— أى نعم فلان!

— ماله؟ أو ما باله؟ أو علام تسأل عنه.

ولا يعى أنك تسأله عن لقائه إلا بعد السؤال الثالث أو الرابع على هذا المنوال. وهى عادة غالبة على الطبقة الجاهلة فى بلاد الريف على الخصوص مرجعها بطء الحركة الذهنية وإهمال الكلام واعتباره لغواً لا يرتبط بالتفكير ولا يحمل معناه إلا مع التوكيد والترديد.

وبعض هذه اللوازم لازم فى الحديث المفيد، لأنه يعينك على تتبع الحديث والوقوف على مراحله وغاياته. كلازمة «نهايته» فى موضعها الصحيح، أو لازمة «على كل حال» أو «لا تؤاخذنى» إذا كانت تهيء الذهن حقاً لسماع شيء يحتاج إلى الاستئذان أو طلب السماح. فهذه اللوازم فى المحادثات أشبه بعناوين الفصول والأبواب فى الكتب والمخطوطات. ولكنها قد تتواتر وتتكرر حتى تفقد معناها ولا تتعدى أن تكون حشواً بغير دلالة ...

ومن قبيل ذلك فنان قدير فى فنه تلازمه كلة «ثانياً» حين يقيم الأدلة على صحة فكرة أو مذهب من المذاهب الفنية. فإذا «ثانياً» هى أولا وثانياً وثالثاً ورابعاً إلى آخر العشرة، أو تزيد!

وكفى بمراقبة هذه اللوازم أنك تستمد منها سبباً للاصغاء إلى الأحاديث سواء منها ما استحق الإصغاء وما استحق الإعراض ... لأنك تسمع على الأقل «لوازم» تصلح للتفكهة وتصلح للدلالة على الفوارق بين «الشخصيات» والفوارق بين أساليب الألسنة وحركات العقول.

عباس محمود العقاد

على أن الله الذي له الأمر قد وضع للبشر سنناً للنصر والهزيمة من سار على سنن النصر انتصر ومن أخذ بسنن الهزيمة هزم . ليس الأمر متروكا للفوضى أو الاتفاق .

« ويومئذ يفرح المؤمنون — إلى — لا يعلمون » .

فى هذه الآية إخبار بأن المؤمنين سيفرحون بنصر الله حينما يغلب الروم الفرس . فهل نصر الله الذي يفرح به المؤمنون هو انتصار الروم . هذا بعيد ، وما للمؤمنين يفرحون بانتصار الروم وهم عدو لهم كسائر أمم الأرض التي كرهت هذا النور الجديد حفاظاً على تراثها من أديان وأباطيل ، ثم فى الآية : وعد الله لا يخلف الله وعده . فهل هو وعد الله المسلمين أن ينتصر الروم . لا . بعيد كل البعد أن يقال إن المسلمين يفرحون بانتصار الروم وقد وعد الله المسلمين ، انتصار الروم ، إنما الوعد لن يعود إليه الخير من الواعد ، ولم يكن للمسلمين فى انتصار الروم خير .

بين جداً أن الآية تبشر المؤمنين بنصر قد وعدوه ، وأنهم سيفرحون بهذا النصر فى السنة أو السنين التي يغلب فيها الروم فما هذا النصر ؟

رجحت من قبل أن هزيمة الروم التي اهتم بها العرب فنزلت هذه الآيات وقعت حوالى سنة ٦١٥ ، فالنصر الذي يفرح به المسلمون حين يغلب الروم فى بضع سنين من هذه الهزيمة ، هو انتصارهم يوم بدر ، وكانت وقعة بدر فى السنة الثانية فى الهجرة أى سنة ٦٢٤ من الميلاد وبين ٦١٥ ، ٦٢٤ بضع سنين .

وقد روى أن خبر انتصار الروم بلغ المسلمين وهم فى غزوة الحديبية ، وكانت الغزوة سنة ست من الهجرة ، وهذه الرواية مردودة بدليلين :

الأول أن بين الحديبية وبين هزيمة الروم فى الشام أكثر من اثنى عشر عاماً ولا يقال لهذه المدة بضع سنين .

والثانى أن الحديبية لم تكن نصراً فرح به المسلمون بل كانت صلحاً رأى فيه رسول الله صلوات الله عليه وسلامه خيراً للاسلام وكانت عاقبته خيراً ، ولكن المسلمين حزنوا له حينما وقع ورأوا فيه ذلا لهم إذ رجعوا عن مكة وقد خرجوا لدخولها والاعتمار بها .

على أن انتصار المسلمين ، وظهور الإسلام قد بدأ بالهجرة وتوالى انتشار الإسلام ، وانتصار المسلمين فى الوقائع من بعد . فجائز ألا نخص النصر الذي يفرح به المسلمون بوقعة واحدة أو حادثة معينة، بل نقول قد وافق انتصار الروم أول عهد ظفر فيه المسلمون وعز دينهم وأول انتصار للروم وقع سنة الهجرة سنة ٦٢٢ م كما أسلفت .

تضمنت الآيات خبرين عن المستقبل صادقين ، انتصار الروم وانتصار المسلمين ، وتضمنت كذلك أنهما يقعان فى وقت واحد .

« ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » ولكن مشيئته جرت على أن ينصر من يأخذ بوسائل النصر ، وفى القرآن الكريم : « ولينصرن الله من ينصره » . « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » ، « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

فنصر الله لا يؤتاه من أساء عملا ، أو قعد عن التوسل إلى النصر بوسائله ، أو أخذ بأسباب الهزيمة ، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تحويلا .

« وعد الله لا يخلف الله وعده » .

هذا هو الوعد الذي فى قوله : ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله وهو مطابق لوعد الله العام وسنته الدائمة أن ينصر المؤمنين ويؤيد المجاهدين ويمكن الصالحين ، « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات — إلى — فأولئك هم الفاسقون » . « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » . « الذين إن مكناهم فى الأرض — إلى عاقبة الأمور » .

فلا يقعد أحد ويرجو ثواب الساعين ، ولا يفرط وينظر جزاء المجدين ، ولا يقصر ويبغ أجر المجاهدين ، « وأن ليس للانسان إلا ما سعى — إلى — الأوفى » .

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون — إلى — غافلون » .

أكثر الناس لا يعلمون سنن الله فى خلقه ، ونصره المؤمنين وتمكينه الصالحين وهم غافلون عن القوانين الإلهية ، والسنن التي يسير الخالق عليها عباده . وما قدره لأهل الخير وأهل الشر ، وأنصار الحق ، وأنصار الباطل . غافلون عن أن لله وعداً وأن وعده لا يخلف وسنته لا تبدل . عليها سارت الأمم ، وتعاقبت الدول ، وتقلبت الأمم ، وتغيرت الجماعات ، ولم تتبدل أو تتحول . أكثر الناس فى غفلة عن هذا . « لم يتفكروا فيها ولم ينعموا النظر وأخذوا الأمور بالظن ، وقاسوها بالوهم ، « وإن تطع أكثر

من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله » .

« إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » .

أكثر الناس لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، أمور من المحسات عرفوها بالممارسة ، والتعود ، وأدركوها بالتقلب فى المعاش ، والتجربة . وهم فى غفلة عن الحقائق الكبرى ، التى تتصل بالمبدأ والمنتهى والقوانين التى تسير الناس فى الحياة ، والتى تقضى بين الحق والباطل والخير والشر ، وتفصل بين أمة مصلحة وأخرى مفسدة ، وجماعة يغلب فيها الحق ، وأخرى يسود فيها الباطل . وهم فى غفلة عن الآخرة وما فيها من جزاء عادل ، وقصاص حق .

عبد الوهاب عزام

من أحاديث الإذاعة :

السـعادة ...(*)

للأستاذ على الطنطاوى

كنت أقرأ فى ترجمة (كانت) الفيلسوف الألمانى الأشهر ، أنه كان لجاره ديك ، قد وضعه على السطح قبالة مكتبه ، فكلما عمد إلى شغله صاح الديك ، فأزعجه عن عمله ، وقطع عليه فكره . فلما ضاق به بعث خادمه ليشتريه ويذبحه ويطعمه من لحمه ، ودعا إلى ذلك صديقاً له ، وقعدا ينتظران النداء ، ويحدثه عن هذا الديك ، وما كان يلقى منه من ازعاج ، وما وجد بعده من لذة وراحة ، ففكر فى أمان ، واشتغل فى هدوء ، فلم يقلقه صوته ، ولم يزعجه صياحه ...

... ودخل الخادم بالطعام وقال معتذراً ، إن الجار أبى أن يبيع ديكه ، فاشترى غيره من السوق ، فانتبه (كانت) فإذا الديك لا يزال يصيح !

* * *

فكرت فى هذا الفيلسوف العظيم فرأيته قد شقى بهذا الديك لأنه كان يصيح ، وسعد به وهو لا يزال يصيح ، ما تبدل الواقع ما تبدل إلا نفسه ، فنفسه هى التى أشقته لا الديك ، ونفسه هى التى أسعدته ، وقلت : مادامت السعادة فى أيدينا فلماذا نطلبها من غيرنا ؟ ومادامت قريبة منا فلماذا نبعدها عنا ، إذ نمشى إليها من غير طريقها ونلجها من غير بابها ؟ إننا نريد أن نذبح (الديك) لنستريح من صوته ، ولو ذبحناه لوجدنا فى مكانه مائة ديك ، لأن الأرض مملوءة بالديكة ، فلماذا لا نرفع الديكة من رؤوسنا إذا لم يمكن أن نرفعها من الأرض ؟ لماذا لا نسدّ آذاننا عنها إذا لم نقدر أن نسدّ أفواهها عنا ؟ لماذا لا نجعل أهواءنا وفق ما فى الوجود إذا لم نستطع أن نجعل كل ما فى الوجود وفق أهوائنا ؟

أنام فى دارى فلا توقظنى عربات الشارع وهى تزلزل بسيرها الأرض ، ولا أصوات الباعة وهى ترعد فى الجو ، ولا أبواق السيارات وهى تسمع الموتى ، وتوقظنى همسة فى جو الدار ضعيفة ، وخطوة على ثراها خفيفة . فإن نمت فى الفندق لم يوقظنى شىء وراء باب غرفتى . فإن كان نومى فى القطار لم يزعجنى عن منامى حديث جيرانى إلى جنبى ، ولا صوت القطار وهو يهتز بى . فكيف احتملت هنا ما لم أكن أحتمله هناك ؟ وآلمنى هناك ما لم يؤلمنى هنا ؟

ذلك لأن الحس كالنور، إن أطلقته أضاء لك ماحولك فرأيت ما تحب وما تكره ، وإن حجبته حجب الأشياء عنك ، فأنت لاتسمع أصوات الشارع مع أنها أشد وأقوى، وتسمع همس الدار وهو أضعف وأخفت، لأنك وجهت إلى هذا حسّك، وأدخلته نفسك فسمعته على خفوته كما ترى فى الضياء صغائر الأشياء ، وأغفلت ذاك وأخرجته من نفسك ، فلم تسمعه على شدته ، وخفى عنك كما تختفى فى الظلام عظائم الموجودات - فلماذا لا تصرف حسك عن كل مكروه ؟ إنه ليس كل ألم يدخل قلبك . ولكن ما أدخلته أنت برضاك ، وقبلته باختيارك ، كما يدخل اللص العدوّ قلعته بثغرة يتركها فى سورها . فلماذا لا نقوى نفوسنا حتى نتخذ منها سوراً دون الآلام ؟

أيها السادة المستمعون :

إنى أسمعكم تهامسون . تقولون : « فلسفة وأوهام » . نعم ،

(*) حديث كتب لمحطة الشرق الأدنى ، فسجلته فى مصر وأذاعته من يافا يومى (٧) و (٨) مايو ١٩٤٧ .

إنها فلسفة ، ولكن ليست كل فلسفة هذياناً . وإنها أوهام ، ولكن الحياة كلها أوهام تزيد وتنقص ، ونسعد بها ونشقى ، أو شيء كالأوهام :

يحمل الرجلان المتكافئان في القوة الحمل الواحد ، فيشكو هذا ويتذمر فكأنه حمل حملين ، ويضحك هذا ويغني فكأنه ما حمل شيئاً ، ويمرض الرجلان المتعادلان في الجسم المرض الواحد فيتشاءم هذا ويخاف ، ويتصور الموت ، فيكون مع المرض على نفسه ، فلا ينجو منه ، ويصبر هذا ويتفاءل ويتخيل الصحة ، فتسرع إليه ويسرع إليها . ويحكم على الرجلين بالموت ، فيجزع هذا ويفزع فيموت ألف مرة من قبل الممات ، ويملك ذلك أمره ويحكم فكره ، فإذا لم تنجه من الموت حيلته ، لم يقتله قبل الموت وهمه ...

وهذا بسمارك رجل الدم والحديد ، وعبقري الحرب والسلم ، لم يكن يصبر عن التدخين دقيقة واحدة ، وكان لا يفتأ يوقد الدخينة من الدخينة نهاره كله فإذا افتقدها خلَّ فكره ، وساء تدبيره . وكان يوماً في حرب فنظر فلم يجد معه إلا دخينة واحدة ولم يصل إلى غيرها ، فأخرها إلى اللحظة التي يشتد عليه فيها الضيق ويعظم الهم ، وبقي أسبوعاً كاملا من غير دخان ، صابراً عنه أملا بهذه الدخينة ، فلما رأى ذلك ترك التدخين ، وانصرف عنه ، لأنه أبى أن تكون سعادته مرهونة بلفافة تبغ واحدة ...

وهذا العلامة المؤرخ الشيخ الخضري ، أصيب في أواخر عمره بتوهم أن في أمعائه ثعباناً ، فراجع الأطباء ، وسأل الحكماء ، فكانوا يداورون الضحك حياء منه ، ويخبرونه أن الأمعاء قد يسكنها الدود ، ولكن لا تقطنها الثعابين . فلا يصدق .

حتى وصل إلى طبيب حاذق بالطب ، بصير بالنفسيات ، قد سمع بقصته ، فسقاه مسهلا وأدخله المستراح وكان قد وضع له فيه ثعباناً فلما رآه أشرق وجهه ، ونشط جسمه ، وأحس العافية ونزل يقفز قفزاً ، وكان قد صعد متحاملا على نفسه يلهث إعياء ، ويئن ويتوجع ، ولم يمرض بعد ذلك أبداً .

ما شفي الشيخ لأن ثعباناً كان في بطنه ونزل ، بل لأن ثعباناً كان في رأسه وطار ، لأنه أيقظ قوى نفسه التي كانت نائمة ، وإن في النفس الإنسانية لقوى إذا عرفتم كيف تفيدون منها صنعت لكم العجائب .

تنام هذه القوى فيوقظها الخوف ويوقظها الفرح ؛ ألم يتفق لواحد منهم أن أصبح مريضاً ، خامل الجسد ، واهي العزم لا يستطيع أن ينقلب من جنب إلى جنب ، فرأى حيّة تقبل عليه ، ولم يجد من يدفعها عنه ، فوثب من الفراش وثباً ، كأنه لم يكن المريض الواهن الجسم ؟ أو رجع إلى داره العصر وهو ساغب لاغب ، قد هدّه الجوع والتعب ، لا يبتغي إلا كرسياً يطرح نفسه عليه ، فوجد برقية من حبيب له أنه قادم الساعة من سفره ، أو كتاباً مستعجلا من الوزير يدعوه إليه ليرقى درجته ، فأحس الخفة والشبع ، وعدا عدواً إلى المحطة ، أو إلى مقر الوزير ؟

هذه القوى هي منبع السعادة تتفجر منها كما يتفجر الماء من الصخر نقياً عذباً ، فتتركونه وتستقون من الغدران الآسنة ، والسواقي العكرة .

أيها السادة والسيدات : إنكم أغنياء ولكنكم لا تعرفون مقدار الثروة التي تملكونها ، فترمونها زهداً فيها ، واحتقاراً لها . يصاب أحدكم بصداع أو مغص ، أو بوجع الضرس ، فيرى الدنيا سوداء مظلمة ، فلماذا لم يرها لما كان صحيحاً بيضاء مشرقة ؟ ويحمى عن الطعام ويمنع منه ، فيشتهي لقمة الخبز ومضغة اللحم ، ويحسد من يأكلها ، فلماذا لم يعرف لها لذتها قبل المرض ؟

لماذا لا تعرفون النعم إلا عند فقدها ؟

لماذا يبكي الشيخ على شبابه ولا يضحك الشاب لصباه ؟

لماذا لا نرى السعادة إلا إذا ابتعدت عنا ، ولا نبصرها إلا غارقة في ظلام الماضي أو متشحة بضباب المستقبل ؟

كل يبكي ماضيه ، ويحن إليه ، فلماذا لا نفكر في الحاضر قبل أن يصير ماضياً ؟

أيها السادة والسيدات :

إنا نحسب الغني بالمال وحده ، والمال وحده ؟ ألا تعرفون قصة الملك المريض الذي كان يؤتى بأطايب الطعام فلا يستطيع أن يأكل منها شيئاً ، لما نظر من شباكه إلى البستاني وهو يأكل الخبز الأسمر بالزيتون الأسود ، يدفع اللقمة في فمه ويتناول الثانية بيده ، ويأخذ الثالثة بعينه ، فتمنى أن يجد مثل هذه الشهية ويكون بستانياً ؟

فلماذا لا تقدرون ثمن الصحة ؟ أما للصحة ثمن ؟

من يرضى منكم أن ينزل عن بصره ويأخذ مائة ألف دولار؟ من يبيع قطعة من أنفه بأموال عبود باشا ؟

أما تعرفون قصة الرجل الذى ضل فى الصحراء ، وكاد يهلك جوعاً وعطشاً ، لما رأى غدير ماء وإلى جنبه كيس من الجلد ، فشرب من الغدير ، وفتح الكيس بأمل أن يجد فيه تمراً أو خبزاً يابساً ، فلما رأى ما فيه ، ارتد يأساً ، وسقط إعياء . لقد رآه مملوءاً بالذهب !

وذاك الذى رأى مثل ليلة القدر ، فزعموا ، أنه سأل ربه أن يحول كل ما مسته يده ذهباً ، واستجيبت دعوته ، فلمس الحصى فصار ذهباً ، ومس الخشب فصار ذهباً ، فكاد يجن من فرحته ، ومشى إلى بيته ما تسعه الدنيا ، وعمد إلى طعامه ليأكل فمس الطعام فصار ذهباً ، وبقى جائعاً ، وأقبلت بنته تواسيه ، فعانقها فصارت ذهباً ... فقعد يبكى يسأل ربه أن يعيد إليه بنته وسفرته وأن يبعد عنه الذهب .

وروتشلد الذى دخل خزانة ماله الهائلة فانصفق عليه بابها فمات غريقاً فى بحر من الذهب .

يا سادة : لماذا تطلبون الذهب وأنتم تملكون ذهباً كثيراً ؟ أليس البصر من ذهب ، والصحة من ذهب ، والوقت من ذهب ؟ فلماذا لا نستفيد من أوقاتنا ؟ لماذا لا نعرف قيمة الحياة ؟

كلفتنى المحطة بهذه الأحاديث الأربعة من شهر ، فما زلت أماطل بها ، والوقت يمر ، أيامه ساعات ، وساعاته دقائق ، لا أشعر بها ولا أنتفع منها ، فكأنها صناديق ضخمة خالية ، حتى إذا دنا الموعد ولم يبق إلا يوم واحد ، أقبلت على الوقت أنتفع به ، فكانت الدقيقة ساعة ، والساعة يوماً ، فكأنها العلب الصغيرة المترعة جوهراً وتبراً ، واستفدت من كل لحظة حتى إنى لأكتب هذا الحديث والله ، فى محطة (باب اللوق) وأنا أنتظر الترام فى زحمة الناس وتدافع الركاب ، فكانت لحظة أبرك علىّ من تلك الأيام كلها ، وأسفت على أمثالها ، فلو أنى فكرت كلما وقفت أنتظر الترام بشىء أكتبه ، وأنا أقف كل يوم أكثر من ساعة متفرقة أجزاؤها ، لربحت شيئاً كثيراً . ولقد كان صديقنا الأستاذ الشيخ بهجة البيطار يتردد من سنوات بين دمشق وبيروت ، يعلم فى كلية المقاصد وثانوية البنات ، فكان يتسلى فى القطار بالنظر فى كتاب (قواعد التحديث) للامام القاسمى ، فكان من ذلك تصحيحاته وتعليقاته المطبوعة مع الكتاب ، والعلامة ابن عابدين كان يطالع دائماً ، حتى أنه إذا قام إلى الوضوء أو قعد للأكل أمر من يتلو عليه شيئاً من العلم فألف (الحاشية) . والسرخسى أملى وهو محبوس فى الجب ، كتابه المبسوط ، أجل كتب الفقه فى الدنيا ، وأنا أعجب ممن يشكو ضيق الوقت ، وهل يضيق الوقت إلا الغفلة أو الفوضى ؟ أنظروا كم يقرأ الطالب ليلة الامتحان ، تروا أنه لو قرأ مثله لا أقول كل ليلة ، بل كل أسبوع مرة لكان علامة الدنيا ، بل انظروا إلى هؤلاء الذين ألفوا مئات الكتب كابن الجوزى والطبرى والسيوطى والجاحظ ، بل خذوا كتاباً واحداً كنهاية الأرب ، أو لسان العرب ، وانظروا ، هل يستطيع واحد منكم أن يصبر على قراءته كله ونسخه مرة واحدة بخطه فضلا عن تأليف مثله من عنده ؟

والذهن البشرى ، أليس ثروة ؟ أماله ثمن ؟ فلماذا نشقى بالجنون ولا نسعد بالعقل ؟ لماذا لا نمكن للذهن أن يعمل ولو عمل لجاء بالمدهشات ؟ لا أذكر الفلاسفة والمخترعين . ولكن أذكركم بشىء قريب منكم ، سهل عليكم ، هو الحفظ . إنكم تسمعون قصة البخارى لما امتحنوه بمائة حديث خلطوا متونها وأسنادها ، فأعاد المائة بخطئها وصوابها . والشافعى لما كتب مجلس مالك بريقه على كفه ، وأعاده من حفظه . والمعرى لما سمع أرمنيين يتحاسبان بلغتهما ، فلما استشهده أعاد كلامهما وهو لا يفهمه . والأصمعى وحماد الراوية وما كانا يحفظان من الأخبار والأشعار . وأحمد وابن معين وما كانا يرويان من الأحاديث والآثار . والمئات من أمثال هؤلاء ... فتعجبون ، ولو فكرتم فى أنفسكم لرأيتم أنكم قادرون على مثل هذا ولكنكم لا تفعلون .

أنظروا كم يحفظ كل منكم من أسماء الناس والبلدان ، والصحف والمجلات ، والأغانى والنكات ، والمطاعم والمشارب ، وكم قصة يروى من قصص الناس والتاريخ ، وكم يشغل من ذهنه ما يمر به كل يوم من المقروءات والمرئيات والمسموعات فلو وضع مكان هذا الباطل علماً خالصاً ، لكان مثل هؤلاء الذين ذكرت .

الذكرى العاشرة للرافعي

للأستاذ محمود أبو رية

مما يجب علينا لعظمائنا وعلمائنا الذين ينتزعهم الموت من بيننا، أن ننتهز كل مناسبة تمر بنا لنستعلن بفضلهم ، ونبعث التحية الطيبة إلى أرواحهم ، وفى ذلك وفاء لهم وأحياء لذكرهم حتى لا نرمى بعدم الوفاء ، ولا نزنّ بنكران الجميل

ولمناســـبة انقضاء عشرة أعوام على وفاة أديب العربية وكاتبها السيد مصطفى صادق الرافعى رحمه الله نرى من الحق علينا أن نبعث إلى روحه الطاهرة بتحية مباركة طيبة ونرجو أن تفى هذه التحية ببعض ما له من فضل وما يستحق من تقدير

نبت الرافعى فى أكرم منبت وأزكى مغرس ؛ فبيت (الرافعى) مشهور فى الأقطار الإسلامية بأنه بيت علم وأدب وتقوى ، ولئن كان رحمه الله قد ورث عن آبائه الدين والتقوى ، فانه قد نشأ على حب الأدب العربى،فأقبل على دراسته دراسة استيعاب واستقصاء وتحقيق ، حتى تضلع من فنونه ، وتملأ من أصوله ، ووقف على أساليب بلغاء العربية وأحاط بطرائقهم ومناحيهم حتى أصبح صدره خزانة أدب . وقد آتاه الله ملكة قوية فى البلاغة ، وحاسة دقيقة فى البيان ، وبهذه الدراسة المحيطة للأدب العربى ،والملكة القوية فى البلاغة ، والذوق الدقيق فى البيان ، استطاع أن يبتدع لنفسه أسلوباً خاصاً فى الكتابة العربية يباين أساليب الكتاب جميعاً إذ يجمع هذا الأسلوب بين البلاغة والحكمة والخيال ، هذا مع النكتة اللاذعة والكناية المستملحة . حتى لو أنك نصبت جملة من إنشائه بجانب جمل كثيرة من إنشاء غيره من كتاب العربية لبانت جملته منها جميعاً ، ولنادت على نفسها بأنها للرافعى ومن أسلوبه رحمه الله

لقد شبهوه بالجاحظ ، وكأنهم لما رأوا أسلوبه محكم النسج متخير اللفظ مصقول العبارة أنيق الديباجة ، قد خلعت عليه البلاغة زخرفها ، وكسته الفصاحة بجميل وشيها؛ قالوا إنه جاحظ هذا العصر . ولكن الجاحظ على إمامته فى البلاغة وبراعته فى

(*) توفى رحمه الله فى صباح يوم الاثنين ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ .

أعرف نادلا كان فى (قهوة فاروق) فى الشام اسمه (حلمى) يدور على رواد القهوة وهم مئات يسألهم ماذا يطلبون : قهوة أو شاياً أو كازوزة أو ليموناً ، والقهوة حلوة ومرة ، والشاى أحمر وأخضر والكازوزة أنواع ، ثم يقوم وسط القهوة ويرد هذه الطلبات جهراً فى نفس واحد ، ثم يجىء بها فما يخرم مما طلب أحد حرفاً !

فيا سادة ، إن الصحة والوقت والعقل ، كل ذلك مال ، وكل ذلك من أسباب السعادة لمن شاء أن يسعد .

* * *

وملاك الأمر كله ورأسه الإيمان ، الإيمان يشبع الجائع ، ويدفىء المقرور ، ويغنى الفقير ، ويسلى المحزون ، ويقوى الضعيف ، ويسخى الشحيح ، ويجعل للانسان من وحشته أنساً ، ومن خيبته نجحاً .

وأن تنظر إلى من هو دونك ، فانك مهما قل مرتبك ، وساءت حالك ، أحسن من آلاف البشر ممن لا يقل عنك فهماً وعلماً ، وحسباً ونسباً ، وأنت أحسن عيشة من عبد الملك بن مروان ، وهارون الرشيد ، وقد كانا ملكى الأرض . فقد كانت لعبد الملك ضرس منخورة تؤلمه حتى ما ينام منها الليل ، فلم يكن يجد طبيباً يحشوها ويلبسها الذهب ، وأنت لا تؤلمك ضرسك حتى يقوم فى خدمتك الطبيب . وكان الرشيد يسهر على الشموع ، ويركب الدواب والمحامل وأنت تسهر على الكهرباء ، وتركب السيارة . وكانا يرحلان من دمشق إلى مكة فى شهر وأنت ترحل فى أيام أو ساعات .

فيا أيها السادة والسيدات .

إنكم سعداء ولكنكم لا تدرون . سعداء إن عرفتم قدر النعم التى تستمتعون بها ، سعداء إن عرفتم نفوسكم وانتفعتم بالمخزون من قواها ، سعداء إن سددتم آذانكم عن صوت الديك ولم تطلبوا المستحيل فتحاولوا سد فمه عنكم ، سعداء إن طلبتم السعادة من أنفسكم لا مما حولكم .

أكل الله عليكم سعادتكم ، وأسعد الله مساءكم ، والسلام عليكم .

(القاهرة)

علي الطنطاوي

الترسل ، وطول نفسه فى العبارة ، وافتنانه فى تلوينها وابداع تصويرها ، كان عندما يستطرد إلى غير الغرض الذى ساق كلامه إليه ، ويذهب فى شعاب القول ههنا وههنا يؤدى به هذا الاستطراد إلى الخروج عن بلاغته العالية .

ومع أن الجاحظ حجة من حجج العربية وامام كتابها على مد العصور فانك لا تجد فى مطاوى كلامه قبساً من الحكمة . والحكمة من أقوى اداة الكاتب والشاعر

ولقد كان للرافعى خيال بعيد ينفذ به إلى أقطار المعانى الدقيقة فيستوحى منها الدرر ، ويحلق فى جواء التصورات البعيدة فيستنزل منها الغرر

ولا نقول هذا مجاملة له رحمه الله ، ولا يدفعنا إليه تشيع لما كان بينى وبينه من أواصر الصداقة والودة ، وإنما هو الحق والانصاف .

وقد كان الرافعى أستاذ مدرسة خاصة فى الأدب والكتابة ، وكان فى الأخلاق الكريمة والتمسك بآداب الإسلام ومجد العرب أمة وحده ، لا يعنيه شىء فى الحياة إلا أن يحرس لغة القرآن ويحافظ على أساليبها ، ويبعث من تراثها ، ثم كان لا ينفأ يعمل على إحياء الآداب الإسلامية والأخلاق الدينية ، حتى ينشأ هذا الجيل على محبة لغته ودرس فنونها والتمرس بآدابها ثم يأخذ بأخلاق دينه وصالح عاداته . إذ كان يستيقن رحمه الله — وهو على حق — ان الأمة لا تنهض إلا باستمساكها بأصول لغتها وكريم أخلاقها ، ثم لها بعد ذلك أن تأخذ من العلوم والفنون النافعة فى الحياة ما شاءت وشاء لها نظام العمران

ولما انبعثت فتنة (التجديد والمجددين) منذ أكثر من ثلث قرن وكان أهلها يحاولون أن تكون الكتابة (باللغة العامية) وأن نهجر أدبنا القديم وتراثنا التليد كان هو أول من نازل دعاتها وظل وحده يناضل ويصاول حتى كتب له النصر وخرجت الأساليب العربية الصحيحة ظافرة تشرق على أسلات الأقلام

وما كانت هذه الفتنة لإصلاح يراد ولا كانت لتطور معتدل وإنما كانت ترمى إلى غرض بعيد ؛ ذلك أن القضاء على البلاغة العربية يؤدى لا جرم إلى هجر القرآن وعدم فهمه وبذلك يصبح هذا الكتاب المقدس للغة العربية كاللاتينية للغات الأوروبية ؛ ومتى صار القرآن كذلك فقل على الإسلام العفاء .

وظل رحمه الله رابضاً متحفزاً يحمى ذمار العربية ويذود عن حوضها إلى أن انقلب إلى ربه

وانى لأشهد أنه كان يتحرق على ماوصلنا إليه من ضعف فى الأدب ، وانحلال فى الخلق ، ويود لو تتاح له الفرصة ليطلع على الناس فى كل أسبوع بمقال فى إحدى الصحف يؤدى فيه شيئاً من رسالته حتى سنحت له فرصة الكتابة بمجلة الرسالة الغراء وارتقى منبرها فامتلأ قلبه فرحاً وقد بدا سروره فى خطاب أرسله إلى فقال (١)

« أما الرسالة فهم كتبوا إلى بعد أن تركت طه حسين ... وقد رأيت انى مخطىء فى الاقتصار على وضع الكتب ، وكان فى نيتى من زمن الكتابة أسبوعياً فى مجلة كبيرة كما أخبرتك فلما عرضت هذه الفرصة انتهزتها لأجرب هذه الطريقة ... ولعلى أوفق إن شاء الله بعونه تعالى فى المضى فى الكتابة والقوة بالله ، وسأنوع المواضيع كما رأيت ويدخل فيها فصول الكتاب النبوى بين الوقت والوقت إلى أن يتم وأنا أقاسى فى كتابته الآن عسراً شديداً من الحر والتعب وحالة المعيشة الحكومية لعنة الله عليها

« وهذا الوضوع صعب جداً يا أبارية ليس فى العربية مقال واحد منه . ومن يومين أطلعنى العريان على الجزء الأول للنظرات (٢) فإذا فيه مقال عن الهجرة لا يساوى نصف مليم ! فادع الله لنا بالعون فى اقتحام هذه العقبة ... »

والكتاب النبوى الذى يشير إليه الرافعى فى هذا الخطاب هو كتاب كان يريد أن يضمه فى رسالة الرسول صلوات الله عليه ويجعل عنوانه (محمد)

ولقد كان له غير ذلك آمال يريد تحقيقها وأعمال يود استكمالها ، ومن هذه الأعمال كتاب (تاريخ آداب العرب) الذى كان يقول عنه انه دين فى عنقه حتى يتمه . وقد انعقد الاجماع عندما ظهر الجزء الأول منه انه لم يؤلف فى موضوعه مثله

وممن أشادوا به الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد باشا فقد

(١) فى خطاب أرسله لى مؤرخ ٤/٧/١٩٣٤ .
(٢) كتاب النظرات للمنفلوطى رحمه الله .

عقد له صفحات كثيرة فى الجريدة ولولا اننا نؤثر الإيجاز لأتينا على ما كتبه هنا[1]

وعقد له الأمير شكيب أرسلان رحمه الله صفحة طويلة فى صدر جريدة المؤيد[2] جاءت فيها هذه العبارة « لو كان هذا الكتاب خطا محجوباً فى بيت حرام اخراجه منه لاستحق أن نحج إليه ، ولو عكف على غير كتاب الله فى نواشىء الاسحار لكان جديراً أن يعكف عليه »

ومن الكتب التى أنمها كتاب (أسرار الإعجاز) وكان رحمه الله يفاخر به وقد وضع أكثره. وكان يريد أن يضع « رسالة فى معارضة الدرة اليتيمة لابن المقفع بنفس الأسلوب وعلى الطريقة الأولى فى الكتابة العربية طريقة المتقدمين »[3]

وكتب إلى فى خطاب[4]:

« وأنت قرأت الآم فرتر وهذا الكتاب مشهور فى لغات أوروبا وآدابها فأنا أريد معارضته وقد قام بذهنى انه لا راحة لى إلا إذا أخرجت مثله »

وقال فى خطاب آخر :

« ولا يزال فى فكرى أن أضع كتاباً صغيراً يكون أشبه بقصيدة واحدة فى معارضة سفر من أسفار التوراة كأناشيد سليمان مثلا »[5]

وقال فى خطاب[6]

« وأنا بحسرة من كليلة ودمنه[7] فلو وفقنى الله إلى اتمامه كتاباً برأسه لكان حادثاً فى تاريخ العربية كلها »

ولا استوفى هنا كل ما كان يريد عمله

ولقد كان له فى البحث والاستقصاء شأن عجيب فيوم أن غمره الجمال وأخذ يؤلف كتاب أوراق الورد بعد رسائل الأحزان أراد أن يعرف هل كتب (اخوان الصفا) فى الجمال

(١) يراجع مثلا ما كتبه فى عدد الجريدة الصادر فى ٤ مارس سنة ١٩١٢.

(٢) جريدة المؤيد الصادرة فى ١٩ فبراير سنة ١٩١٢ .

(٣) من خطاب خاص مؤرخ ١٠ ديسمبر سنة ١٩٢٥ .

(٤) من خطاب خاص مؤرخ ١٩٢١/١/٢٥ .

(٥) من خطاب مؤرخ ٥ يونيه سنة ١٩٣٦ .

(٦) من خطاب مؤرخ ١٢ سبتمبر سنة ١٩٢٦ .

(٧) نشر بعض فصول من هذا الكتاب فى كتابه (تحت راية القرآن)

فكتب لى فى خطاب مؤرخ ١٩ يوليو سنة ١٩٣٠

« ... أبحث فى إخوان الصفا هل كتبوا عن الجمال فإنى لم أقرأ فى هذا الكتاب إلا قليلا ولا وقت عندى لتصفحه ... »

كتب إلى فى خطاب آخر مؤرخ ٢١ نوفبر سنة ١٩٣١ يقول

« أحب أن تراجع قسم المنطق من رسائل إخوان الصفا لمعرفة هل استعمل واضعو هذه الرسائل كلمة (استنتاج) أم لا فإن من مقالات المجموعة[1] مقالة عن هذه الكلمة وحل استعمالها . أما الكلمة نفسها فعثرت عليها فى كتابة ابن سينا وهذا يدل على أنه أخذها عمن قبله ، فلا بد أن تكون قد وردت فى رسائل إخوان الصفا » . وإن القول فى الرافعى وأدبه لطويل؛ وإنما هى سطور كتبناها لمناسبة انقضاء عشرة أعوام على وفاته رحمه الله

وإذا كان أقصى مايقال فى العظماء بعد وفاتهم أن يتحدث عن صفاتهم وأعمالهم ، وعما أصاب الناس بفقدهم ، وهل لهم خلف يعزى عنهم أو أنهم قد خلا مكانهم فإنى أقولها كلمة ولا أخشى فيها أحداً .

ذلك إن مكان الرافعى قد خلا وانه لم يخلفه فى إداء رسالته أحد . رحمه الله رحمة واسعة .

المنصورة **محمود أبو رية**

(١) أى مجموع مقالاته وكان يسمى هذه المجموعة (الورقات) .

هل الموت نتيجة لازمة للحياة؟

الحيوانات والنباتات الخالدة — الشيخوخة وأسبابها

للأستاذ نصيف المنقبادى المحامى

« إلى ذكرى العالم البيولوجى المصرى الكبير الدكتور عثمان غالب باشا أقدم هذه الثمرة البسيطة من حديقة تعاليمه الفيحاء »

يعتقد جمهور الناس أن الموت نتيجة طبيعية لازمة للحياة ، وأن كل كائن حى لا بد من أن يموت . فإذا صحت هذه العقيدة فلا محل للبحث عن أسباب الشيخوخة ولا محاولة الكشف عن علاج لها لانتفاء حدوثها لأنها تكون حينئذ قضاء محتما لا مفر منه . ولكن من ينعم النظر ويدقق البحث على ضوء الاكتشافات والحقائق العلمية الحديثة يتضح له أن تلك العقيدة لا تستند إلى أى سند علمى وأن سبب قيامها فى أذهان الناس هو ما يشاهدونه عادة فى الإنسان وفى باقى الحيوانات والنباتات المتعددة الخلايا نتيجة عوامل الشيخوخة التى سيأتى الكلام عنها .

وقبل أن نتكلم عن هذه العوامل ونبين أن الشيخوخة مرض كسائر الأمراض ينشأ عن تسمم تدريجى ناتج من نظام التغذية وجهاز التصريف الناقصين فى النباتات والحيوانات (بما فيها الإنسان) — نقدم من الآن الأدلة القاطعة التى تهدم تلك العقيدة من أساسها — عقيدة ضرورة الموت — ونعنى بذلك الحيوانات والنباتات الخالدة .

الحيوانات والنباتات الخالدة :

كل من يفحص بالميكرسكوب قطعة من جسم إنسان أو من جسم أى حيوان أو أى نبات يتضح له أنها مؤلفة من خلايا صغيرة متلاصقة لا ترى بالعين المجردة وهى أشبه بخلايا النحل ولكنها غير منتظمة مثلها ، والخلية تتركب من مواد زلالية مخلوطة أو ممزوجة بمواد دهنية ومواد سكرية أو نشوية ، وفى وسطها نواة من مواد زلالية أخرى ، ولمعظمها غشاء أو غلاف يحيط بها من مادة زلالية وغيرها فى الحيوانات ، ومن مادة السيليلوز فى النباتات وهى من فصيلة السكر والنشاء ومادة الخشب .

وأصل كل فرد من النباتات والحيوانات (ومنها الإنسان) خلية واحدة تسمى فى علمى الحيوان والنبات « بالبيضة » ، وهى خلية ميكرسكوبية[1] تنتج من تلقيح بويضة الأنثى بخلية خاصة مشتقة من أعضاء التذكير فى الحيوانات والنباتات . وتأخذ البيضة بعد التلقيح فى النمو بطريق الانقسام نتيجة التغذى فتنقسم إلى قسمين يبقيان متلاصقين ، وينقسم كل منهما إلى قسمين آخرين وهلم جرا ، وعلى هذا النحو تتكاثر الخلايا المشتقة من البيضة وتنشأ منها مختلف الأنسجة والأعضاء فيتكون الجنين ثم الفرد الكامل .

غير أنه توجد كائنات حية مكونة من خلية واحدة وأعنى بها النباتات الأولية كالبكتريا والمكروبات ، والحيوانات الأولية الميكرسكوبية كالإميبا التى يسبب نوع منها مرض (الدوسنطاريا) وكجرثومة الملاريا وجرثومة مرض النوم وغيرها . وكيفية توالد وتكاثر هذه الأحياء ذات الخلية الواحدة هى أن تنقسم كل منها إلى قسمين (وأحيانا فى بعض الأنواع إلى أقسام عديدة) كما يحدث لخلايا الحيوانات والنباتات الأخرى المتعددة الخلايا وخاصة أثناء تكوين أجنتها (جمع جنين) على الوجه المتقدم بيانه . غير أن كل قسم جديد من أقسام الخلية الأصلية ينفصل هنا عن غيره ويصبح فرداً جديداً يحيا حياة مستقلة ويتغذى فينمو وينقسم بدوره إلى أقسام أخرى تصبح أفراداً جديدة ، وهكذا ، بحيث لا يموت ولا يفنى شىء من هذه الأفراد إلا بحادث مهلك كأن يجف الماء الذى تعيش فيه أو يفسد أو كأن تبتلعها حيوانات أخرى مع الماء وتهضمها .

ولكن يحدث أنه بعد عدة انقسامات تصبح الأفراد الأخيرة غير قابلة للانقسام كأنها شاخت أو هرمت ، وهذه أول صور الشيخوخة وأبسطها فى عالم الأحياء . ولا شك فى أن هذا العجز ناتج مما يتراكم داخل أجسامها من بقايا المواد الإفرازية السامة

---

(١) أما بيض الطيور الكبير المعروف للجمهور بهذا الإسم فهو أيضاً بيض بالمعنى العلمى ولكنه يحتوى على كمية هائلة من المواد الغذائية المختلفة التى يتغذى بها الجنين ويتكون منها أثناء نموه داخل القشرة الجامدة .

المتولدة من احتراق المواد الغذائية بعد هضمها وعدم تصريفها (أى الإفرازات السامة) إلى الخارج بأكملها ، ذلك الاحتراق اللازم لتوليد الطاقة (القوة والحرارة) الضرورية لعمليات الحياة ، ولهذا يعرّف الفسيولوجيون الغذاء بأنه وقود الكائنات الحية الحيوانية والنباتية . ولو استمر هكذا حال تلك الأفراد العاجزة عن الانقسام لماتت لا محالة كما يموت أفراد الأحياء العليا بالشيخوخة . غير أنه يكفي لاسترداد شبابها ونشاطها الانقسامى أن يلتصق كل فردين منها أحدهما بالآخر ويتبادلان نصف نواتيهما ثم ينفصلان فإذا بهما شباب ناهض قابل للانقسام من جديد . وهذه هى أول صورة من صور التلقيح فى عالم الكائنات الحية .

وليس التلقيح سراً من وراء الطبيعة فقد استعاض عنه البيولوجيون (علماء الحياة) وفى مقدمتهم جاك لوب ببعض مؤثرات طبيعية أو كيميائية على الأفراد العاجزة عن الانقسام فيفصلون فرداً واحداً منها فى قليل من الماء ويضيفون إليه قليلا من بعض الأحماض أو القلويات الخفيفة أو يسلطون عليه تياراً كهربائياً ضعيفاً أو يرجّونه داخل أنبوبة صغيرة فيأخذ هذا الفرد الهرم فى الانقسام من تلقاء نفسه كما يحدث عقب اتصاله بفرد آخر مماثل له وتلقيح الواحد منهما بالآخر على الوجه المتقدم بيانه.

ويظهر أن فعل التلقيح الطبيعى وفعل هذه المؤثرات الاصطناعية إنما هو تنشيط تصريف تلك الافرازات السامة المتراكمة داخل أجسام الأفراد التى شاخت وصارت عاجزة عن الانقسام أو إحداث تفاعلات كيميائية من شأنها إزالة تلك السموم الإفرازية ومحو أثرها .

وخلاصة القول أن الحيونات والنباتات الأولية ذات الخلية الواحدة هى كائنات حية لا تموت ولا ينعدم منها شىء ، فتى وصل الفرد منها إلى تمام نموه ينقسم إلى قسمين مستقلين يصبح كل منهما فرداً جديداً ينمو ثم ينقسم بدوره إلى أفراد جديدة ، وهكذا إلى ما لا نهاية له دون أن يموت أو يتلاشى شىء منها إلا بحادث مهلك كما تقدم فى ذلك القول. فهى أحياء خالدة بالمعنى الحقيقى ويمكن القول أن أفرادها التى تعيش الآن هى هى التى نشأت منذ نحو مائة مليون سنة عند ظهور الحياة على الأرض وما زالت حية تنقسم منذ ذلك الماضى البعيد المتغلغل فى القدم إلى اليوم وإن كان قد طرأ عليها أثناء ذلك بعض التغيير فى أشكالها بفعل العوامل الطبيعية جرياً على نواميس التطور والتحول . وإذا لوحظ أن هذه الكائنات الأولية ذات الخلية الواحدة هى أول ماظهر على الأرض وأنه مضت مئات الألوف أو الملايين من السنين قبل أن يتحول فريق منها إلى الحيوانات والنباتات المتعددة الخلايا — إذا لوحظ هذا يمكن القول أن الموت ليس نتيجة لازمة للحياة وأنه مرت على الأرض فترة طويلة من الزمن تنعم فيها الأحياء بالخلود ، وإنما طرأ الموت على الكائنات الحية فى طور من تطوراتها فى الوقت الذى أخذت فيه الاحياء ذات الخلية الواحدة تعيش جماعة متلاصقة لأسباب طبيعية محلية دعت إليها الظروف المستجدة ، ذلك لأن خلايا هذه الأحياء المتعددة — المتعددة الخلايا — ثابتة فى مكانها فى الأنسجة المختلفة ، لا تستطيع (أى الخلايا) أن تنتقل لتلتقى بالخلايا الأخرى حتى تتلاقح وتتقى الشيخوخة على ما تفعل الأحياء الوحيدة الخلايا ، خصوصاً وأن كل فريق من تلك الخلايا المجتمعة فى الحيوانات والنباتات العليا تخصص فى وظائف معينة من أعمال الحياة وتنوع فى شكله ليلائم وظيفته كخلايا الأعصاب وخلايا العضلات وخلايا الغدد وخلايا الجلد وغيرها فى الحيوانات ، وكخلايا الأنسجة المختلفة فى النباتات فصار غير صالح لأن يتلاقح مع غيره (وقد تخصصت فيها خلايا أعضاء التناسل للتلقيح لمصلحة مجموع الحيوان أو النبات وهى التى تضمن بقاء النوع وعدم تلاشيه — النوع فقط دون الأفراد) .

فالموت يبدو لنا أنه نتيجة تطور الكائنات الحية من الأحياء الأولية ذات الخلية الواحدة إلى الأحياء الأرقى مرتبة وهى المتعددة الخلايا فهو الفدية التى تدفعها ثمنا لذلك الارتقاء ، ثمناً غالياً حقاً .

وهذا ما يقوله أستاذى المأسوف عليه العالم الكبير داستر Dastre الذى كان أستاذ علم الفسيولوجيا فى كلية العلوم بجامعة باريس (السوربون) وعضواً فى المجمع العلمى (أكاديمى العلوم) وعضواً فى أكاديمى الطب فى كتابه «الحياة والموت» صحيفة ٢٢٧ وما بعدها .

« ... ومن هذا يتبين أن الخلود هو من خواص الكائنات ذات الخلية الواحدة التى تتناسل بطريق الانقسام النصفى ، وأذا

لوحظ أن هذه الكائنات هى أول ماظهر من الإحياء على الأرض وأنها سبقت بزمن طويل الحيوانات والنباتات الأخرى المتعددة الخلايا فتكون النتيجة المنطقية البديهة أن الحياة ظلت مدة طويلة على الأرض دون الموت ، وإن الموت طرأ بعد ذلك نتيجة تطور الأحياء وتحولها من ذات الخلية الواحدة إلى المتعددات الخلايا »

* * *

ومما يؤيد هذا — أى عدم ضرورة الموت — التجارب القديمة المعروفة التى قام بها بعض من البيولوجيين على كثير من أنواع الديدان والحيوانات الجوفاء كأخطبوط الماء العذب بل وعلى حيوانات أعلى مرتبة ، بتقطيعها قطعاً تنمو كل قطعة منها وتصبح فرداً جديداً كاملا محيا حياة مستقلة، وهكذا يصنعون من الحيوان الواحد عدة حيوانات ، ويكررون ذلك فى الأفراد الجديدة وهلم جرا . ويمكن مواصلة هذا العمل إلى ما لا نهاية له دون أن يتطرق الموت إلى تلك الأفراد ماداموا يقطعونها وهى فتية، وهذه العملية معروفة ومألوفة فى النباتات .

ويؤيد هذا أيضاً التجارب والأبحاث العظيمة الشأن التى يقوم بها منذ سنين عديدة الدكتور كاريل فإنه يحفظ أجزاء حية صغيرة مفصولة حديثاً من أجسام الإنسان والحيوانات فى سوائل مغذية مطهرة تُجدد وتهوى باستمرار ، فتستمر حية يستعين بها الجراحون فى عمليات الترقيع وغيرها حتى أنهم وصفوا الدكتور كاريل « بأنه تاجر أنسجة حية » ، والأغرب من هذا أن تلك الأجزاء المحفوظة كثيراً ما تنمو وتتكاثر خلاياها بطريق الانقسام كما يظهر من فحصها تحت الميكرسكوب من حين إلى آخر بعد أن تكون قد فقدت تنوعها وعادت إلى شكل الخلايا الجنينية الأولى (الشكل البسيط الذى تكون عليه خلايا الجنين فى أول أطوار تكوينه) .

***

ويتصل بهذا الموضوع بحث على جانب كبير من الأهمية وهو أن تقسيم الكائنات الحية إلى حيوانات ونباتات ، وإلى فروع وصفوف ومراتب وفصائل أو أفراد إنما هو تقسيم اصطناعى من وضع الإنسان ، وأنه ليس للفوارق التى تفصل فى الظاهر بينها وجود مطلق حقيقى ثابت فى المكان والزمان ، فلا توجد فى الحقيقة والواقع إلا المادة أو مجموعة المواد الزلالية المعقدة التركيب المسماه « بالحية » وهى صورة من صور المولد الكيميائية الأخرى ومشتقة منها — تشتق على الدوام تحت اعيننا وعلى مرأى منا من الجادات ، من الهواء والأرض ، بفعل طاقة أشعاع الشمس بواسطة الكلورفيل (المادة الخضراء النباتية) ؛ وقد ظهرت المواد المذكورة الموصوفة بالحية على الأرض منذ أن أصبحت هذه صالحة للحياة وستظل هكذا إلى أن تمسى غير صالحة لها ، كل هذا بفعل العوامل الطبيعية . وكل ما فى الأمر أن هذه المواد الحية الدائمة تبدو لنا فى صور مختلفة اختلافاً ظاهرياً وقتياً كما تبدو الجادات والمعادن فى أشكال متنوعة يتحول بعضها إلى البعض وهى فى مجموعها لا تفنى . على أن هذا موضوع عويص يضيق بنا المقام دون بسطه الآن .

(البقية فى العدد القادم)

نصيف المنقبادى
المحامى

إلى طلبة التوجيهية :

٢ – شاعران في المنفى

للأستاذ أحمد محمد الحوفي

تمهيد — موضوعات القصيدتين — الصور والخيال — الأسلوب — كلمة عامة ... ...

وفي كلتا القصيدتين فخر، ولكنه أيضاً صورة من نزوع الشاعر وميله، فالبارودي رجل الجيش والحرب يفتخر بشجاعته وبلائه في الحرب، ولم تزايله حماسته في منفاه، فسيفه هنالك صاحبه الوحيد، يحمله جسمه القوي الشديد، وهو سيف متعطش إلى الدم، حتى ليشرئب من الغمد إذا لمسه البارودي متلهفاً إلى أن يضرب به. ويفخر بوفائه، وإقدامه، وصواب رأيه إذا استبهم الصواب، وربما كان غرضه هنا تعزيز رأيه الذي أبداه قبل الثورة العرابية متخوفاً من سوء عقباها، ويكرر الفخر بشجاعته وتقدير الأبطال له حتى ليفدونه بأنفسهم، وببلاغته وسحر شعره، لكنه غالى في قيمة هذا الشعر إذ زعم أنه يضارع أبلغ شعر سابق، ويكبر أن يشبهه شعر لاحق، وجرته محاكاته للقدماء إلى تقدير لذاذة شعره بأنها ألذ من الحداء، وختم الفخر بأنه قوال وفعال وغيره يقول ولا يفعل.

وفخره بنفسه وبشعره في مجال الشكوى تسرية عن نفسه من ناحية، ومحاكاة لأبي فراس الحمداني وهو أسير من ناحية. قال:

ولا صاحب غير الحسام منوطة   حمائله مني على عاتق صلد
إذا حركته راحتي للمة   تطلع نحوي يشرئب من الغمد
سجية نفس لا تخون خليلها   ولا تركب الأهوال إلا على عمد
وإني لمقدام على الهول والردى   بنفسي، وفي الإقدام بالنفس ما يردي
وإني لقوال إذا التبس الهدى   وجارت حلوم القوم عن سنن القصد
فإن صلت فدّاني الكمي بنفسه   وإن قلت لبّاني الوليد من المهد
ولي كل ملساء المتون غريبة   إذا أنشدت أفضت لذكرى بني سعد
أخف على الأسماع من نغم الحدا   وألطف عند النفس من زمن الورد
مخدرة تمحو بأذيال حسنها   أساطير من قبلي، وتعجز من بعدي
كذلك إني قائل ثم فاعل   فعالي، وغيري قد يقول ولا يسدي

أما شوقي شاعر مصر المنوه بأمجادها، المعتز بماضيها، الملم بتاريخها فقد افتخر بسالف عهدها، فالدهر منذ طفولته لم يحتفل بغير الفراعنة، ولم يعرف أقوى منهم، وهم صبر على النوائب وفيون بالعهد لا يتلونون كالحرابي، وهو هنا يشير إلى وفائه للخديو عباس ويعرض بمن تلون من أصدقائه أو يعرض بالإنجليز أصحاب السياسة المتقلبة، والشمس لم تشرق على ملك عظيم كمصر، وقد عبدت على ضفاف النيل، ورأت ملوكا له أبناءها الفراعين، وإنه لواد جميل خصيب تشرق الشمس عليه فتكسوه أشجاراً ووروداً وحريراً، ونحن الفراعنة حكمنا الأرض قبل الرومان، وكنا رواد العالم. ولم يفت شوقي أن يعرج على الأهرام الخالدة، فوصفها هذا الوصف البارع: بناها الدهر لا الإنسان الفاني، وعمرت مقاصيرها أربعة آلاف عام تقوضت فيها عروش الملوك وهي باقية، وكأنها وبحر الرمل حولها سفن واراها اليم إلا قلوعها، وكأنها والضحا يتلألأ فوقها كنوز فرعون يزنها على موازين كبار فغطتها وتكومت فوقها. قال:

لم يجر للدهر إعذار ولا عرس   إلا بأيامنا أو في ليالينا
ولا حوى السعد أطغى في أعنته   منا جياداً ولا أرخى ميادينا
نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا   ولم يهن بيد التشتيت غالينا
ولا يحول لنا صبغ ولا خلق   إذا تلون كالحرباء شانينا
لم تنزل الشمس ميزاناً ولا صعدت   في ملكها الضخم عرشاً مثل وادينا
ألم تؤله على حافاته، ورأت   عليه أبناءها الغر الميامينا؟
إن غازلت شاطئيه في الضحا لبسا   خمائل السندس الموشية الغينا

وبات كل مجاج الواد من شجر ... لوافظ القز بالخيطان ترمينا
وهـذه الأرض من سهل ومن جبل ... قبـل القياصر دناها فراعيـنـا
ولم يضع حجراً بان على حجر ... فى الأرض إلا على آثار بانينا
كأن أهرام مصر حائط نهضت ... به يد الدهر لا بنيان فانينا
إيوانه الفخم من عليا مقاصره ... يفنى الملوك ولا يبقى الأواوينا
كأنها ورمالا حولهـا التطمت ... سـفينة غرقت إلا أساطينا
كأنها تحت لألاء الضحا ذهباً ... كنوز فرعون غطين الموازينا

وهذا الفخر بمـاضى الوطن من شاعر مبعد عنه حزين لما ألم به من أحـداث وكوارث قوى الصلة بمحور القصيدة، وبنفسية الشاعر المكروب من الحاضر المتجهم، فيرجع إلى المـاضى المشرق لأنه يجد فيه عزته وراحته وسلوانه.

وأخيراً يتحدثان فى الغزل المصطنع من كليهما فى هاتين القصيدتين، فالبارودى ينعت حبيبته بالوفاء، ويصفها بالجمال وجهاً وخصراً، ويعرض حالة ماضيه إذ أسرته بنظرها الساحر فعلق بها وتبعها، فتظاهرت بالدهشة من حماقته كأنها لا تعلم أنها الجانية، ويرجوها ألا تصـد عنه حتى لا تعذبه وتقعده عن طلب المجد، وألا تظن أن فى قلبه قدرة على تحمل مزيد من الحب، ويصور مقدار خضوعه لها بأنها لو أمرته أن يهلك نفسه لفعل. قال:

فلست بناس ليـلة سلفت لنا ... بواديه، والدنيا تغر بما تـسدى
إذ العيش ريان الأماليد، والهوى ... جديد وإذ لميـاء صافية الود
منعمة، للبـــدر ماقى قناعها ... وللغصن ما دارت به عقدة البند
سبتنى بعينيها، وقالت لتربها ... ألا ما لهذا النز يتبعنى قصدى
ولم تدر ذات الخال — والحب فاضح — ... بأن الذى أخفيه غير الذى أبدى
حنانيك إن الرأى حار دليله ... فمثل، وعاد الهزل فيك إلى الجد
فلا تسألى منى الزيادة فى الهوى ... رويداً، فهذا الوجد آخر ما عندى
وها أنا منقاد كما حكم الهوى ... لأمرك فاخشى حرمة الله والمجد
فلو قلت: قم فاصعد إلى رأس شاهق ... وألق إذا أشرفت نفسك للوهـــد
لألفيتها طوعاً لملك بعدها ... تقولين: حيا الله عهدك من عهد

وشوقى تنزل فى محل بحبيبته التى يعف فى حبها، فهو يحن إليها حنيناً لا يشوبه تدلل، وهو غير مستطيع صبراً على فراقها، وهو جلد ولكن الحزن غلبه لأنه أبعد عنها بالنفى من وطنه وحصنه، وليـله طويل لا نهاية له تتناوبه فيه الذكريات الحلوة والمرة فتميته وتحييه، وتكاد آلام الفراق ترديه، ولا يفتأ يبكى ويئن، ويراقب النجوم حتى ترثى له أو تمل مراقبته وتتعب من السير، ولكنه فى النهاية يتكلف الصبر أمام الأعداء حتى لا يشمتوا. قال:

يا من نغار عليهم من ضمائرنا ... ومن نصون هواهم فى تناجينا
ناب الحنين إليكم فى خواطرنا ... من الدلال عليكم فى أمانينا
جئنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا ... فى النائبات فلم يأخذ بأيدينا
وما غلبنا على دمع ولا جـلد ... حتى أتتنا نواكم من صياصينا
ونابغى كأن الحشر آخره ... تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا
نطوى دجاه بجرح من فراقكم ... يكاد فى غلس الأسحار يطوينا
إذا رسا النجم لم ترقأ محاجرنا ... حتى يزول ولم تهدأ تراقينا
بتنا نقاسى الدواهى من كواكبه ... حتى قعدنا بها حسرى تقاسينا
يبـدو النهار فيخفيه تجلدنا ... للشامتين ويأسوه تأسينا

ويتفرد شوقى بتمجيده عرب الأندلس والبكاء على ملكهم المضيع، ولم يعرج البارودى فى قصيدته ولا فى غـيرها على مجد المسلمين بالهنـد وأثرهم فى تحرير عشرات الملايين من أبنائها من الوثنية، وجوبهم البحار قبـل كولبس وماجـلان، وهى ينابيع ثرة بالذكريات يترع بها خيال الشاعر لو أنه مثقف وبصير بالتاريخ.

ثم يتميز بأن شكر لمصر برها به، وإرسالها الهدايا والأموال إليه، وأجاد تصور حالها حين اضطرت إلى نفيه محبة له حريصة على سلامته.

ثم يفترق من البارودى بالتمهيد لموضوع قصيدته بمناجاة الحمام النائح ويختلف عنه أيضاً فى تخيله نسمة عبقة قد سرت من مصر إليه فأنعشته، ثم ينفرد بوصفه الرائع لجمال الطبيعة فى مصر، ووصفه أهرامها.

(البقية فى العدد القادم)

أحمد محمد الحوفى

هذا العالم المتغير :

دمك يؤثر على تفكير عقلك

للاستاذ فوزى الشتوى

مخك يتأثر بغذائك :

إلى أى مدى يظل عقلك أداة مفـكرة تسيطر على عضلات جسـمك ، إذا تعرض للحرارة أو البرودة أو نقص غذاؤه من الأكـسوجين أو السكر أو الـكالسيوم أو غيرها من المواد ؟

موضوع جديد ، واسع الآفاق ، عسير الفهم . ولكن العلماء يدركون أهميته البالغة ، ويعرفون أن المخ البشرى مثل جهاز اختبار محـكم لا يكل لحظة عن الحركة . فهو يتلقى المؤثرات الخارجية أو الداخلية المختلفة ، ويحللها واحدة واحدة ثم يعطى أوامره للاستجابة المناسبة لـكل منها أيضاً . ودراسة هذه الحركة الدائمة تتبع علما حديثاً نسميه بكيمياء العقل . فكلما تغيرت نسب المواد الـكيميائية فى المخ تغيرت أيضاً استجابات الإنسـان ، وآراؤه ، وشخصيته وأخلاقه ، وقدرته العقلية من ذكاء أوغباوة

فهل تعرف مثلا أن مخ الوليد أفقر فى المواد الحديدية من مخ البالغ ؟ وأن قصر العقل عن أداء وظائفه إنما ينطوى على نقص فى عناصره المعدنية ؟

اكتشف إبراهام ميرسون وليو الـكسندر الإخصائيان فى الأمراض العقلية هاتين الحقيقتين بتعريض أنسجة المخ إلى أشعة المرقب الطيفى الـكاشفة : وقاس آخرون مواد العقل الـكيميائية فى حالات اضطرابه فوجدوها ناقصة فى بعض أنواع الكبريت والحديد

الماء فى المخ

وكميات الماء فى المخ عامل جوهرى فى أداء وظائفـه وتقرير ملكاته . فإن زاد أو قل عن النسب المعقولة أدى إلى كوارث لا يقتصر أمرها على نقص القدرة العقلية بل يسفر عن هذيان وذهول وإغماء . فإن الماء فى المخ يحتفظ بالمواد الـكيميائية فى محاليل ذات نسـبة معينة من التركز ، وأى زيادة أو نقص فى كمية الماء تزيد تركيز المحاليل الـكيميائية أو تنقصها مما يؤدى إلى اضطراب التفكير

وزيادة الحوامض أو القلويات فى المخ ذات تأثير وقتى فى الغالب ؛ ولـكن المخ القلوى يعرض صاحبه للصرع ، ويقلبه بين حالات التشنج واضطراب الأفكار . أما المخ الحامضى فيعرض صاحبه لمرض السكر ، فعندما تتركز الجسيمات الحامضية يضعف المخ ويسفر عن الذهول ثم الإغماء أو يتوقف تماما عن كل نشاط

الأكسوجين والذكاء :

والأكـسوجين بالنسبة للذكاء من أهم العناصر فى المخ . وقد برزت هذه الحقيقة عام ١٨٦٢ حين قام العالم الطبيعى جليشر يصحبه كوكسول الإخصائى فى الناطيـد برحلتهما المشهورة فى طبقات الجو العليا.فى ٤٨ دقيقة صعد بهما المنطاد إلى ارتفاع ٢٨٫٠٠٠ قدم . وعندئذ أدرك جليشر أنه لا يسـتطيع قراءة أرقام مقياس الحرارة أو ساعته . ولاحظ كوكسول حالة زميله فهبط بمنطاده وعندئذ استعاد جليشر قدرته العقلية

وتمادى هالدان وكالاس فى دراسة هذه الظاهرة فدخلا غرفة محكمة من الصلب ، وتولى آخرون إفراغها من هوائها حتى هبط الضغط داخلها إلى ٣٢٠ ملليمتراً من الزئبق أى ما يوازى ارتفاع ٢٤٫٥٠٠ قدم . وعندئذ تعذر على هالدان أن يقرأ أو يبدى أية ملاحظة وكانت إجابته على أى سؤال يوجه إليه «دعه على ٣٢٠»

وبعد ساعة وربع استولى القلق على زملائهما خارج الغرفة فكتبوا رسالة وضعوها أمام نافذة الغرفة ولـكن إجابتهما لم تتغير « دعه على ٣٢٠ » وكان من الجلى أن إجابتهما لم تكن سـوى إجابة أناس تعطل تفكيرهم بسبب الحاجة إلى الأكسوجين

وخفف الصحب الضغط إلى ٣٥٠ ملليمتراً أى ما يوازى ارتفاع ٢١٫٥٠٠ قدم . ومعنى هذا زيادة كمية الأكسوجين فى الغرفة وأن القوة العقلية تسترد جزءاً من قدرتها لا كلها،والدليل على ذلك ان هالدان أراد أن يرى شفتيه فى مرآة تناولها ولـكنه بدل أن ينظر إلى سطح المرآة العاكس حدق فى ظهرها

وخفف الضغط مرة أخرى إلى ٤٥٠ ملليمتراً (١٤٥٠٠ قدم) فانجلى ذهن هالدان تماما . ولكنه لم يحس بمرور الوقت كما أن ذاكرته لم تع شيئاً مما مر به في تلك الفترة الطويلة

ينام في ثلاجة :

وأجرى السير جوزيف باركروفت عدداً من التجارب ليعرف تأثير التبريد على المخ . وهو كما تعرف أحد العمليات الهامة في الكيمياء . فخلع ملابسه ودخل ثلاجة رقد على أرضها ليرى النتيجة . وكان يعرف أنه يعرض نفسه باختياره للتجمد ليدرك استجابات العقل في مثل هذه الحالة وكان يرقبه خارج الثلاجة أحد أتباعه ، فلما رآه يفقد وعيه لفه في أغطية صوفية وأسقاه مشروبات ساخنة ليفيق . وقد كرر السير باركروفت تجربته . ووصفها بقوله ان ما أذكره عن محاولاتي خفض درجة حرارة جسمي قليل . ففي كل من التجربتين اللتين تمت بهما أحسست بلحظة تغير خلالها كل مظهري العقل . فعندما كنت راقداً عارياً في الثلاجة كنت أرتعش ، وكانت مفاصلي تنتفض رغما عني في محاولاتها القيام كما أحسست تماما بالبرد الشديد

« وجاءت فترة مددت فيها ساقي ، وغادرني الاحساس بالبرد وأعقبه شعور لطيف بالدفء . ولعل كلمة « تشميس » أو « اصطلاء » هي أنسب تعبير لحالتي فقد كنت أتشمس بالصقيع . وفي اللحظة التي توقف فيها ارتعاش جسمي بدأت الطبيعة البشرية في قتال عنيف لتقاوم استمرار التجربة . استيقظت كل غريزتي وكان من الضروري بذل جهد جبار حتى أستمر . ومضت هذه اللحظة فرضيت عن نفسي في غبطة لأن تأثير الغريزة زال . وشعرت بأنني وصلت إلى ذروة الحالة التي يصل إليها المسافرون حينما يكرهون على النوم في الصقيع في أقسى برودته وهم واثقون انهم لن يستيقظوا أبداً »

« وأدركت تغييراً آخر في حالتي العقلية العامة ، فإن الخجل الطبيعي من أن شخصاً يشترك في التجربة سيدخل الغرفة ليجدني عارياً قد اختفى تماماً . لقد تغير الحياء الطبيعي إلى شيء لا أدرى ما هو . ومن الجلي أن الإنسان يجب أن يكون شديد الحذر من انطلاق العقل . وهذه هي النقطة التي عرفتها فإن أرقى أجزاء الجهاز العصبي المركزي كانت أول ما تعرض للأرهاق حتى زالت موازينها

تأثير الحرارة :

أما ما يحل بالمخ إذا حدث العكس ورفعت درجة الحرارة ، فكان موضوع التجربة التي قام بها هارفي ستون ، وأسفرت عن استرخاء العضلات والنعاس واسترسال العقل في سبات عميق وما تحولت عنه إلى نوبات اضطراب وقلق

وقد وصف التجربة بقوله « إن قراءة كتاب أو الجلوس في وضع واحد كانت من الأشياء المرهقة ، وكان البقاء في وضع مريح يحتاج إلى قوة ارادة ملموسة . كما أن نفس الراحة استلزم الحركة البطيئة الدائمة لكي يغير الإنسان وضعه »

وتؤثر كمية ثاني أكسيد الكربون التي في الدم أيضاً على المخ . وقد جرب هالدان وعالمان آخران البقاء لمدة عشرين دقيقة في جو نسبة ثاني اكسيد الكربون فيه ٧ر٢ في المائة ، وهي تعد نسبة كبيرة ، فأحسوا بعوارض الإجهاد العقلي . فلم يكن في وسع هالدان مثلا أن يركز تفكيره أو ينتبه إلى ما يدور حوله من حديث بغير عناء كبير . ولم يستطع قراءة جريدة ويدرك معنى عباراتها . كان تعباً كأنسان أقبل على الفراش بعد أن أمضى أسبوعاً بغير نوم . وكان يحس ذهنه كصفحة بيضاء لا تعي شيئاً مما يدور حوله

يرى كل شيء مزدوجا :

ويحدث أيضاً تفاعل كيميائي معروف بتأثيره السيء على المخ عندما تتمزق احدى الأوعية الدموية . وقد وصف الدكتور لوسيان كلارك ماحدث له في إحدى هذه الحالات بأنه كان يقاسي من ارتفاع ضغط الدم الذي بلغ ٢٣٠ وهي نسبة كبيرة الارتفاع . وكان يتوقع أن ينفجر أحد الأوعية الدموية في أي وقت .

وصدقت نبوءته فكتب يقول « في ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٤ كنت عائداً بسيارتي من زيارة أحد مرضاي حتى وقفني ضوء إشارة المرور ، فلما أردت متابعة السير ومددت يدي إلى مفاتيح السيارة رأيت يدين وبدل المفاتيح مفتاحين . وتولاني الاضطراب لمدة ثانية واحدة استعدت بعدها وعيي ، ولكني أدركت ماحدث ،

من نشيد الحرية

للأستاذ محمود الخفيف

بالشرق غنيت وكم هزنى   والهم الأسجاع قيثاربه
تعضنى الأغلال لكننى   لا تعرف الأغلالَ أوتاريه
الحاضر المغلوب لم ينسنى   روحاً به خالدة أيقظت ،
بعد سبات حالك ، دهره ،
منّى بها رقرقت أشعاريه

والغرب كم فى أفقه كوكب   فى ظلمات أطبقت ، أومضا
يرقبه المدلج إذ يطلب   هدى له فى الدهر ممن مضى
لولاهم استوحش إذ يضرب   فى فلوات شد ما أوحشت
والعيش داج حوله عابس
والدهر كم من أمل قوضا

كم من أبىّ عاف طعم الحياه   ذليلة مذعنة ضارعه
غبية دانت بشرع الطغاه   راسفة فى جهلها راكعه
صماء ما إن أسمعتها شكاه   خرساء ما أنّت ولا استصرخت
عمياء ترعى الوهم منقادة
بلهاء فى بأسائها رائعة

سقراط كأس الموت فى كفه   عن نحرها الشنعاء هل أحجما ؟
أعجله اليأس إلى حتفه   فأسلم الروح وما استسلما
مبتسم والموت فى جوفه   الظلمة الخرساء فى حفرة ،
أحلى له من باطل غاشم
فى الأرض كم جرعه العلقما

وسيف روما الفاتح القاهر   فتى الوغى فارسها قيصر
أرداه من شيمته جازر   من دمه خنجره يقطر
يقول هذا غاصب جائر   أضله الطغيان عن نهجه
من حوله الحرية استصرخت
الا فَتًى ذو نخوة ينصر ؟

فأسرعت إلى البيت قبل أن يستفحل الأمر . وكانت عيناى طول الفترة تريان مختلف ألوان الأضواء . »

« كنت أرى كل شىء مزدوجا ولم أستطع القراءة لأن ارتباط الحروف أو الأرقام ببعضها ببعض لم يوصل أى معنى إلى ذهنى . حتى أدواتى الجراحية التى أستخدمها سنوات طوالا بدت غريبة أمام ناظرى . ومع أنى كنت أعرف طريقها فإنى لم أدرك طريقة استخدامها . وكانت الكتابة نوعا من المستحيلات .

كان من العسير أن أكتب سطراً واحداً فلما وفقت إلى كتابة حرف لم أجد له أى معنى . وفى هذه المرحلة بلغ الاضطراب والارتباك العقلى أشده . ولا ريب أنى فقدت توازنى الجسمانى ؛ فعندما حاولت اجتياز الغرفة تعثرت بعدة أشياء واتجهت رغبتى إلى النوم طول الوقت .

الذكاء ودم المخ :

والتركيب الكيميائى للدم من العوامل الحيوية فى تغذية المخ ونشاطه أو ركوده ، وقد لجأ العلماء فى السنوات الأخيرة إلى عدة وسائل علمية لدراسة كيمياء الدم الذى يغذى المخ بأجراء عملية بذل يحصل بها على الدم من أوعيته قبل المخ وبعده مباشرة .

وقد وصل العالمان ابرهام ميرسون وهالوران إلى نتائج باهرة كشفت كثيراً من أسرار تغذية العقل . فوجدا مثلا أن السكر فى الدم يختفى بعد مروره بالمخ ، أى أنه يتغذى بالسكر ويمتصه ، فإذا زادت كميته أو قلت فى الدم فإن نشاط المخ يختلف أيضاً . وقد لوحظ أن مخ الأصحاء يستهلك مقداراً كبيراً من السكر ؛ فإذا قلت كميته فى الدم انخفض نشاط العقل أيضاً .

وأثبت التركيب المعدنى لدم المخ أهميته البالغة فى تقدير ذكاء الفرد ، فأعطانا مفتاحاً نتلمس به أسرار العقلية البشرية ، فالكلسيوم والفسفور ضروريان لحفظ النشاط المادى لجميع أنسجة المخ فإذا قلت كميتهما ظهرت عوارض البلادة الذهنية والخمول العقلى ؛ فإذا زادا عن المعقول تجاوز النشاط الذهنى حده العادى وربما بلغ حد الاضطراب مما دفع أطباء الأمراض العقلية إلى استخدامها فى علاج مرضاهم .

وقد لا تمر فترة صغيرة حتى يحتل علم الكيمياء العقلية مكانه إلى جوار علم النفس ويساعد أخصائييه على فهم الطريقة الغامضة التى يعمل بها العقل البشرى الكثير الغموض .

فوزى الشتوى

ما عدمت فى دهرها نُضْـرَةً   وما خبت شعلتها الساطعه
تمثــلت ثائرة مرة   فى الحقل كانت زهرة وادعه
فانقلبت فى حقلها ثورة   عذراء فى درع على ضامر

من حولها تحت غبار الوغى
أسنة ملء الفضا لامعه !

عن جانبيها جحفل واثب   تلهبه الحرية البــاسله
ساحرة كل لها خاطب   ودونها نارٌ وغًى آكله
النار ما إن هابها هائب   كيف وهم فى غمرات الردى ،

يرونها إنســية بينهم
فى درع (جندرك) لهم ماثلة !

تنقلت فى ظلمات العصور   الشعلة الوهاجة العاليه
كم ذائدٍ فى كل عصر جسور   فدى لها مهجته الغاليه
هيهات لا يطفىء ما فى الصدور   قيد ولا خوف ولا غيــلة

وكيف تخشى الموت نفس أبت
عيشتها فى ذلة جاثيه ؟

من الردى (لوثر) لم يفزع   والغيظ نار حوله تضرم
ينزو به الخافق فى الأضلع   لو لم يبح أرداه ما يكتم
يكرُّ كَرَّ البطل الأروع   بالرأى صوال على خصمه

وخصمه فى الرأى ذاك الذى
يجود بالغفران أو يحرم !

والمارد الجبار فى عصره   الســاحر المبتسم الناقم
يرتعد الطغيان من ذكره   وما له من حربه عاصم
فى نثره الويل وفى شعره   (ڤلتير) والدهر له منصت

ينقل للأجيــال آياته
والظلم مستخذ له راغم

كأن فى أضلاعه جمرة   بنارها كم مهجة أشعلا
فى كل قلب نافث ثورة   ما كلَّ أو أبطأ أو بدلا
هاجر عن أوطانه هجرة   نجت من (الباستيل) آراءه

وا عجباً بالقلم المنتضى
بنيان هذا الحصن كم زلزلا !

وجاءت الرجفة من بعده   وجن بركان بهــا يفهق
وأذهل الطغيان عن عهده   لحوله الهول الذى يصعق
والدم موج جد فى مده   يخوضه الفادون فى موكب

عروسه الحرية ، ادّاركت
من حولها ألوية تخفق

زلزلة فى الغرب قد جاوبت   أختاً لها فى الأفق النازح
أختــاً لها نازفة غالبت   منذرها بالعاصف الجائح
بالمــوت إذ أنذرها حاربت   فالعيش فى الأغلال موت وما

يخشى الردى إلا الذى يرتضى
قيــوده فى عيشه الرازح

وهاجــة شعلتها لاتنى   تضىء لا يحبسها حابسُ
من موطن سارت إلى موطن   خانقها من موتها يائس
نار سناها ليس فى الأعين   ملء أبيّــات النفوس السنا

أعْـظَم ما ضوءاً لألاؤها
والليل مرهوب الدجى عابس

قيثارتى كم بطـــل خالد   غير الذى غنيت ضاحى الكفاح
وكم شهيد نازف جاهــد   غاب اسمه وهو وضىء الجراح
وخامل تحت الثرى هامـد   كان طليق الروح ذا عزة

لو كشف الدهر مدى عزمه
شدا به العزم وغنى الطماح !

فى الأفق النازح لا تغفــلى   عن كوكب قيثارتى أبلج
عن نور (إبراهام) لا تذهلى   فى كل دهر قبــلة الدلج
الناشىء البادىء بالمعول   محطم الأغــلال فى قومه

هــدية الغابة مبعوثها
أنداده الأمصار لم تخرج

غنى بأبراهــام واستلهمى   رسالة فى عرسها استشهدا
رســالة ابن الفطرة الملهم   الصارم العزم الوثيق الفدا
الحامل الأعبــاء لم يسأم   والفتنة السوداء من حوله

حتى محا الرقَّ بياض الضحى
وألـف الأبيض والأسودا

من بعده الشعلة حارت فما   تلوح حتى يحتويها السحاب
ثم توارت بعــد حين كما   يموت فى الظلمة ومض الشهاب
الأفق الغربى قــد أظلما   لولا مصــابيح به نورهم ،

باق على الدهر وأسماؤهم
حاضرة ما إن لها من ذهاب

فى الغرب عهد الموقنين انقضى   كما انقضى فى الشرق وحى السماء
احتجب النــور الذى أومضا   وأعتم الليــل ومات الرجاء
وا أسفا ! كم أمــل قوضا   وكم تراءى شــفق كاذب

مخضبٌ مُنْكَدِرٌ أفقه
البغى فيــه والخنا والدماء

الأدب والفن في أسبوع

قبر الكاظمي :

كان المغفور له الشاعر العربي الكبير السيد عبد المحسن الكاظمي قد أوصى قبل وفاته أن يدفن بأرض مصر وأن لا ينقل رفاته إلى العراق . وتنفيذاً لهذه الوصية قامت الحكومة العراقية من جانبها بتشييد مدفن له في مقبرة الامام الشافعي ، وقد تم بناء هذا المدفن في الأسبوع الماضي على وضع يليق بمكانة الشاعر الكبير وإكرام الحكومة العراقية لذكراه ونقل رفات الشاعر إليه في حفل حضره كثيرون من رجال الأدب وأبناء العروبة .

ولعل من المعروف أن الكاظمي رحمه الله قد نشأ في العراق من أسرة عريقة شريفة ، ولكنه غادرها في صدر شبابه هرباً من العسف والطغيان وجاء إلى مصر فوجد من أريحية بنيها عامة ومن رعاية المغفور له الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ما جمله يؤثر الاقامة بها ويتخذ من أهلها أهلا وسكنا. وكانت له رحمة الله عليه صلة وثيقة بالمغفور له الزعيم الوطني الكبير سعد زغلول ، ولما قامت الثورة المصرية وقف الكاظمي ينصرها بشعره ، ويرسل القصائد العامرة في تمجيد سعد والاشادة بزعامته ، وله في ذلك جملة قصائد مطولة سماها بالملقات ...

كان الكاظمي مثال الشاعر العربي القديم في صفاء الفطرة وغزارة المادة وحضور البديهة ، وكان يرتجل القصيدة تزيد على المائة بيت دفعة واحدة فتأتي خالية من الحشو والفضول . وكان يترنم في الشعر بنغم يدوي حلو فيهز النفوس هزا ، وقد أخذ حافظ إبراهيم عنه هذه الطريقة فكانت قوام الروعة في إلقائه المعروف ، وعلى الرغم من بداوة الكاظمي في مظهره وفي طريقته فإن أسلوبه كان حلواً سائغاً خالياً من المماظلة والتعقيد ...

حقاً إن الحكومة العراقية قد أكرمت ذكرى هذا الشاعر الكبير بتشييد هذا الضريح ، وبما أغدقته من رعاية لابنته الوحيدة «رباب» وقد كانت (رباب) كل أمل للكاظمي في حياته ، فلعل حكومتنا تقوم من جانبها بإكرام ذكرى شاعر منح

استدبر النور فما استقبلا   فجراً ولا بارقة أبصرا
يخبط في أوهامه معجلا   يخطو وما يمشي سوى القهقرى
يعيش عيش الغيلة الأولا   الناب والظفر تغطيهما ،
أغطية ما إن يرى مبصر
أشق له منها ولا أخبرا

في شغل أفرله ما يفيق   معبوده ذو وهج يبرق
النور ما يلقيه هذا البريق   فليس ومض غيره يمشق
وهو شواظ من عذاب الحريق   يهوى إلى لألائه دائباً
هذا الفراش المستهام الذي
يجذبه اللمح الذي يحرق !

وألقيت في السجن مكبولة   حيرى به الحربة الراغمة
معصوبة في القيد مغلولة   في أسرها جاثية قائمة
موصولة الثورة مذهولة   تعجب ، من ألبسها غلها
وفيم هذا السجن تلقى به
بعد ضحى رفت به هائمة ؟

تصيح بالسجان إني هنا   فانظر غداً إذ ترجف الراجفة
ما كان هذا السجن لي موطنا   قد أزفت يا آسري الآزفة
هذا ندائي الخافت استملنا   أصغ له ... للريح مجنونة
صافرة من كل صوب ، أنت
تنبيء عما تحشد العاصفة

إني هنا لكنما تجتلي   روحي في كل عتيق طليق
في البحر ... في البيداء ، روحي فلا   توثق أو تخشى ظلاما يحيق
في هزمة الرعد إذا جلجلا   في السحب السابحة استرسلت
في رعدة الأرض إذا زلزلت
في زفرة البركان عاتي الحريق !

روحي في رفرفة الطائر   وفي تغنيه إذا حلقا
وجذوتي في مهجة الشاعر   بنارها ضوأ أو أحرقا
ويحك ! طال الأسر يا آسري   يا موثق الطين بأغلاله
الروح نور الله ... من غلها
هيهات يا آسر أن توثقا

مصر قلبه وخصها بشعره ، فتجمع كل آثار الكاظمى و اشعاره وتطبعها فى ديوان فإن الكاظمى يخلد بشعره أكثر مما يخلد بقبره .

برناردشو والجاحظ :

يشتغل الأستاذ أحمد حقى نائب مدير مكتب البعثات المصرية فى لندن بتلخيص مؤلفات الكاتب الإرلندى المعروف برناردشو وإخراجها فى كتاب جامع ، وقد أراد بهذه المناسبة أن يقابل الكاتب الكبير ليباحثه فى بعض الآراء ، فكتب إليه برناردشو يعتذر عن المقابلة ويقول له : إن المقابلات أمر خارج عن الموضوع، فإنى رجل هرم، وليس فى مقدورى استقبال الزائرين . ولاالبحث معهم فى مؤلفاتى ، وما كتبته قد كتبته ، واود الآن أن يقرأنى الناس لا أن يرونى ... »

وقد أذكرنى هذا بحادثة مماثلة من كاتب العربية الكبير أبى عثمان الجاحظ ، فقد روى عن أبى طاهر انه قال : صرت إلى الجاحظ ومعى جماعة وقد أسن واعتل فى آخر عمره ، وكان يجلس فى منظرة له وعنده ابن خاقان جاره ، فقرعنا الباب فلم يفتح لنا ، وأشرف من النظرة فقال : ألا إنى قد حوقلت وحملت ومسح أبى سعد[1] فما تصنعون ؟ سلموا سلام الوداع ، فسلمنا وانصرفنا ...

فما أشبه صنيع برناردشو اليوم ، بصنيع الجاحظ بالأمس ، والناس هم الناس فى جميع الأزمان والأجيال ...

نشاطنا الثقافى :

يعنى معالى وزير المعارف عبد الرزاق السنهورى باشا برسم الخطة لإصدار سجل ثقافى تتولى إخراجه كل عام إدارة مختصة فى وزارة المعارف وتضمنه مظاهر النشاط الثقافى فى مصر ليكون تاريخاً لحياتنا الثقافية وما يجد فيها من تطورات واتجاهات ، وما يبدو فى مجالها من جهد وانتاج .

وانها لفكرة طيبة وخطوة موفقة ، لأن إصدار مثل هذا السجل فضلاً عما له من الفائدة التاريخية سيكون حافزاً لشحذ العزائم ، فسيقف الناس فيه على مدى النشاط الفكرى ، أى أنه سيكون بمثابة « صحيفة حساب » عن الجهد الثقافى فى عام ...

(١) أى يتكئ على العصا ماهر .

وحبذا لو أخذت جميع الهيئات والجماعات الثقافية والعلمية بهذه الفكرة ، فتقصد كل منها إلى وضع سجل سنوى يؤرخ مظاهر إنتاجها ومناحى نشاطها حتى تبرز وجودها أمام الناس ، على أن تتولى الوزارة تنسيق هذه السجلات الخاصة فى سجلها العام

الروابط الثقافية بين الأقطار العربية :

تبدى الجامعة العربية نشاطاً ملحوظاً مشكوراً فى توثيق عرى الروابط الثقافية بين الأقطار العربيـة ، وقد أشرنا إلى مظاهر هذا النشاط ومقاصده الطيبة فى أعداد «الرسالة» السابقة ، ويسرنا أن نشير اليوم إلى خطوة سديدة خطتها الجامعة فى هذا السبيل ، ذلك أنها قررت أخيراً إيفاد أساتذة محاضرين من مصر إلى عواصم الأقطار العربية الأخرى ، واستقدام أساتذة محاضرين من تلك الأقطار إلى مصر وإلى غيرها من الدول العربية لإلقاء محاضرات عامة تقوية للروابط الثقافية بين أقطار العروبة .

وانها كما قلنا خطوة موفقة تدعو إلى الغبطة والاطمئنان على مستقبل العالم العربى ومستقبل الوحدة العربية ، فإن الوحدة الثقافية فى الواقع أساس الوحـدة السياسية ، ولن تجتمع كلمة العرب فى القصد إلى هدف سياسى واجتماعى موحد إلا إذا تقارب اتجاههم فى التفكير وتوحـدت وجهتهم فى الإدراك العقلى والثقافى ، غير أننا نعود إلى ما سبق أن حذرنا الأمانة العامة للجامعة العربية من الوقوع فيـه ، وهو الاقتصار فى النهوض بهذه المهمات على الرجال الرسميين والأساتذة الموظفين ، بل يجب أن تجعل ذلك ميـداناً مفتوحاً يجرى فيه رجال الفكر والثقافة المتحررين من ربقة الرسميات وتقاليد الوظائف لأن التفكير الرسمى أجدب ما يكون فى خدمة تلك الاتجاهات والنهوض — كما يجب — بمثل هذه المهمات ...

شاعر ... وطباخ :

قرأت فى إحـدى الصحف العربية التى تصدر فى المهجر الأمريكى نبأ طريفاً تقول فيه : « علمنا أن حضرة الواطن الفاضل الشيخ حسين أبو حمزة شاعر الجيل الفذ المشهور نزيل مدينة « جكسنفيل » قد افتتح مطعماً جميلا فى تلك المدينة ، فنرجو الله

أن يوفقه فى تجارته وأن يديمه بلبلا غريداً فى حقل الشعر ...

وضحك صاحبى الذى كان يستمع لما أقرأ وقال : أظن أن شعر صاحبنا هذا تفوح منه روائح البهار والتوابل ، وأعتقد أنه مما تشتهيه البطون ... ثم اندفع يعلق على هذا الكلام فقال : لقد كان المرحوم الأستاذ محمد السباعى يقول : لا تقل يانسيم الصبا ويا ريح الغرام ، بل خير لك أن تقول : يا نسيم المطبخ ويا ريح الشواء ، وكان يقول أيضاً : لأجل أن نعيش لا تكن أديباً فحسب ، بل كن أديباً وصانع أحذية أو أديباً وبائع لعب أو أديباً وشيئاً من ذلك ... وتصور أنت أن أديباً من أدبائنا الكبار افتتح مطعما أو احترف حرفة من هذا القبيل ، إن الناس لا شك كانوا ينظرون إلى هذا على أنه شىء غريب مضحك ...

قلت : أجل . إن هذا قد يبدو لنا أمراً غريباً عجيباً لأننا تعودنا أن ننظر إلى الأدب على أنه حرفة متميزة ، لا يصح أن تقرن بحرفة أخرى ، وأصبحنا ننظر إلى الأديب على أنه إنسان يعيش فى عزلة عن دنيا الناس ، فلا يصح منه ولا يليق به أن يسلك سبيلا فى الحياة من سبل الناس ، وهذا إسراف لا مبرر له ، وإجحاف لا إنصاف فيه .

إن الأدب يا صاحبى ليس حرفة فى ذاته ، وإن الأديب إذ يبتذل فنه فى سبيل العيش يكون قد تدلى إلى أسفل ، ونزل به إلى سوق التجارة، وإنما الأدب إلهام وتضحية كما يقول تولستوى. وقد كان الجاحظ وهو أديب العربية يشتغل فى أول حياته ببيع الخبز والسمك على نهر سيحان ، وكان أبو هلال العسكرى يبيع البز فى الأسواق ، وكان الخبز أرزى يصنع خبز الأرز ، والحسين الجزار يشتغل جزاراً ، وهناك عشرات أمثالهم من الأدباء والشعراء كانوا يعيشون من البيع والشراء فى عروض التجارة وينتجون فى الأدب ويقولون الشعر ، فليكن يا صاحبى فينا الشاعر الطباخ والأديب الخباز والفنان النجار ، فإن هذا لن يضير الأدباء ولن يغض من قيمة أدبهم ، وإنما الانحطاط الأدبى أن يجعل الأديب من أدبه مادة تجارة لكسب الرغيف ...

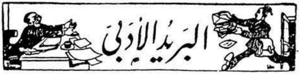
جائزة فؤاد للآداب :

عرف قراء « الرسالة » مما نشرناه فى العدد السابق أن الأستاذ الكبير معالى أحمد لطفى السيد باشا رئيس لجنة الفحص لجائزة فؤاد الأول للآداب قد أعلن فى حفلة توزيع الجوائز بالجامعة ان اللجنة لم تستطع إنجاز مهمتها لضيق الوقت ولهذا رأت تأجيل منح الجائزة إلى العام القادم ، ولكن بعض الصحف علقت بكلام كثير فى هذا الشأن وزعمت أن الأدباء الذين تقدموا لنيل الجائزة لم يستحق أحد منهم الفوز بها .

ولما كان صاحب « الرسالة » عضواً فى لجنة الفحص ، فقد سألناه كما سألنا غيره من الأعضاء عن الحقيقة فأكدوا لنا جميعاً أن الحقيقة هى أن وقت اللجنة كان أضيق من أن يتسع للمفاضلة بين ما أرسلته إليها وزارة المعارف وقد بلغ حوالى مائة كتاب فى أغراض مختلفة . وقد رأت اللجنه أن الأفضل أن تمنح الجائزة وقدرها ألف جنيه لتتويج مجموع إنتاج كاتب من الكتاب لا لمكافأة كتاب من الكتب فتكون جائزة فؤاد على غرار جائزة نوبل التى يكافأ بها كاتب أو عالم أو سياسى على مجموع عمله . أما مكافأة الكتاب الواحد فتكفيها الجوائز التى يمنحها سنوياً مجمع فؤاد للغة العربية وهى جوائز تتراوح قيمة كل منها بين المائة جنيه والمائتين واللجنة تسعى لدى وزارة المعارف لتحقيق ذلك .

وهناك ناحية أخرى يجب أن تكون موضع الاعتبار ، وهى فتح الباب للفوز بهذه الجائزة أمام أبناء الأقطار العربية الأخرى، إذ لا يخفى أن هذا مما يرتفع بقيمة الجائزة ويتمشى مع الرغبة فى توثيق الصلات الثقافية بين الأقطار العربية .

« الجاحظ »



تعليق على تعليق:

هذا كتاب أرسله إلينا الأستاذ محمد تقي القمي السكرتير العام لجماعة التقريب تعليقاً على مقال الأستاذ الطنطاوي المنشور في العدد السابق.

«... وبعد، فقد نشرت الرسالة في عددها ٧٢٢ كلمة للأستاذ الفاضل علي الطنطاوي بعنوان «تعليق على كتاب، إلى علماء الشيعة» عرض فيها للخلافات الطائفية بين المسلمين، وذكر أنها خلافات سياسية كان من الواجب أن تنتهي بانتهاء معاركها السياسية. ويقرر حضرته أن أهل السنة يتمنون أن تطوى الخلافات وينسخ حديثها وتتناسى حتى تنسى، وعرج على كتاب «تحت راية الحق في الرد على الجزء الأول من كتاب فجر الإسلام» واقتبس منه فقرات تمس أهل السنة؛ وأظن أن عنوان الكتاب كاف للدلالة على أنه وضع منذ ست عشرة سنة رداً على مطاعن وجهها إلى الشيعة مؤلف فجر الإسلام[1] نفضل ألا نشير إليها حتى لا نثير مسائل نعمل للقضاء عليها. وقد تبين للمؤلف عدم صحتها فحذفها من الطبعة الثانية — ومعنى هذا أن الشيعة لم يعتدوا وإنما دافعوا عن أنفسهم فقط. ولو أن الأستاذ طنطاوي التفت إلى مقدمة الكتاب المذكور للعلامة آل يس الكاظمي وقد كتبه منذ ستة عشر عاماً لوجد فيها ما يصرفه عن تناول هذا الموضوع، ولتأكد أن علماء الشيعة ينفرون مما ينفر منه، ويدعون لما يدعو إليه، ويرغبون في التقرب إلى أخوانهم السنيين. ولوجد أن الكاظمي نفسه أخذ على المؤلف إسرافه وأن كان التمس له بعض المعاذير.

وبصفتي عضواً في جماعة التقريب وملماً بأحوال النجف وإيران أؤكد أن أحداً من علماء الشيعة لا تسمح له نفسه أن يهاجم المذاهب الأخرى — اللهم إلا أن يكون كاتباً يؤجره المستعمرون — الذين يريدون القضاء على فكرة التقريب بأي ثمن — وليس في علماء الشيعة — والحمد لله — من يغريه المال ...

ولا يفوتني أن أذكر أن ما ينصح به كاتب المقال ويراه طريقاً للاتفاق بين الشيعة والسنة هو بعض ما تسعى إليه جماعة التقريب، وفي المادة الثانية من قانونها الأساسي ما يؤيد ذلك، وأعتقد أن من السهل تحقيقه في زمن قصير لو أعاننا رجال الفكر والعلم والقلم أمثاله.

أما نفقات «دار التقريب» فإن مصدرها تبرعات حضرات أعضاء الجماعة سنيهم قبل شيعيهم وسجلات الدار مفتوحة لكل من يريد الاطلاع.

ومع أني أشكر لأخي الأستاذ طنطاوي حسن ظنه بجماعة التقريب واعتقاده أنها قادرة على رفع الخلافات الطائفية في ثلاثة أشهر — أي من وقت تأسيسها إلى الآن — إلا إني آخذ عليه ما ذكره من أني أقدم لأصدقائنا الكثيرين من فاخر المأكل والمشرب فإني أخاف أن يثوروا جميعاً علينا، إذ لم يقدم إليهم سوى القهوة أو الشاي.

وأحب أن أقول لحضرته أنه لو عرف حياتي الخاصة في إيران ما حسب أن نزولي بفندق الكونتيننتال فيه شيء من الترف أو الإسراف كما خيل إليه.

محمد تقي القمي

السكرتير العام لجماعة التقريب

(1) الكتاب الذي أهدى إلينا مطبوع في طهران سنة ١٩٤٥. (علي)

تحقيقات تاريخية:

للدكتور علي إبراهيم حسن جولات في التاريخ الإسلامي كان آخرها «دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص»[1]، وهو كتاب قيم جدير بمؤلفه ولا تكفي هذه المجالة للإلمام به أو الإشارة إلى قيمته ولكن ورد فيه بالصفحة ٢٩ بعض تعليقات منها ما جاء تحت رقم ٥ «والمعروف أن والد السلطان برقوق كان من فلاحي الدانوب» ولما كان المعروف لدى المعاصرين والمجمع عليه كما جاء في ابن إياس وهو حجة لأنه جركسي الأصل أن السلطان برقوق مؤسس دولة الجراكسة كان من خلاصتهم. وفيه أيضاً: «حضر من بلاد الجراكسة والد الأتابكي برقوق فخرج الناس للاقاته قاطبة فلاقوه في البكارشة في يوم الثلاثاء ٨ ذي القعدة سنة ٧٨١».

(1) مكتبة النهضة المصرية.

وفى وفيات ٧٨٣ « وفيها أنس بن عبد الله الشركسى والد برقوق الملك الظاهر كان كثير البر والشفقة لا يمر بأسير مقيد إلا ويطلقه لا سيما إذا رأى الذين يمرون بالمدرسة التى ابتدأ السلطان بعمارتها ، توفى فى شوال ودفن بتربة يونس ثم نقل إلى المدرسة (يقصد البرقوقية) فدفع ولده الظاهر إلى جلال الدين التبانى ألف مثقال وستمائة ذهباً ليحج عنه ويقال أنه جاوز التسعين » (شذرات الذهب) .

فمن أين جاءت مدام ديفونشير بأن هذا الوالد من فلاحى الدنوب ؟ بينما إسم برقوق من الأسماء التى يحملها الجراكسة إلى الآن وتكتب Birkluk ويحمله ضابط من أصل جركسى وصل إلى رتبة جنرال فى الجيش التركى والتقيت به مراراً مدة خدمتى بأنقرة بالسفارة المصرية ، ولم أتمكن من تحقيق الناحية اللغوية لهذا الإسم ولكنى قرأت فى تعليقات الأمير شكيب أرسلان على ابن خلدون صفحة ١٠٢ » ومن أصناف الترك « الشاروق » أو « الجاروق » وكانوا يسكنون فى مدينة برقوق التى هى اليوم « ماد الباشى » .

وفى الضوء اللامع : برقوق ابن انص الظاهر أبو سعيد الجركسى العثمانى نسبة لجالبه كان شهماً شجاعاً ذكياً خبيراً بالأمور. وساق كلاماً عن ترجمته حتى قال « وترجم له الفاسى فى مكة وله سيرة طويلة جمعها بعض أهل العصر فى مجلد » .

وفى كشف الظنون أن له سيرة جمعها ابن دقاق ثم العينى وذكره أى برقوق المقريزى فى عقوده وجاء فى خططه صفحة ٣٤١ جزء ٣ أنه أخذ من بلاد الجركس وبيع فى بلاد القرم .

وجاء عنه أنه تعلم الفقه وسائر العلوم الإسلامية حتى إن أستاذه « يلبغا »[1] لقبه بالشيخ . فمتى أتى ذكر بلاد الدانوب ؟ وهل لدى مدام ديفونشير نص تاريخى يمكن الاستشهاد به ؟

لا يمكن إنكار حقيقة واقعة وهى أن بلاد الدانوب وبعض بلاد البلقان أتى عليها وقت ساد فيه الإسلام ربوعها وذلك قبل آل عثمان وقبل هجمات التتار أى فى أوائل القرن السابع الهجرى. وجاء فى تعليقات الأمير شكيب أن جميع البلاد إلى النصف الأول من القرن السادس عشر للمسيح من شبه جزيرة البلقان وشطوط البحر الأسود إلى الصين ممالك إسلامية متصلة كما ورد فى دائرة المعارف الإسلامية .

(١) الأتابكى يلبغا العمرى الناصرى .

وفى نص نقله الشيخ عز الدين عمر بن على بن ابراهيم بن شداد عن الأمير بدر الدين يسرى الشمسى أنه كان رفيق الملك الظاهر بيبرس فى بلاد القفجاق وهى الجزء الشمالى من البحر الأسود فلما زحف التتار من القوقاز عليها كاتب قبائل القفجاق أنس خان ملك الأولاق أن يعبروا نحو صوراق إليه ، والمفهوم أن بلاد الأولاق هى رومانيا الحالية أو الجزء الشمالى منها والتى عرفت فيما بعد بالإفلاق باللغة العثمانية ، كما أن المفهوم أن صوداق تقع فى شبه جزيرة القرم ، وأن الأسماء الروسية والأجنبية مثل سباستيول وغيرها أطلقت حديثاً على بلاد إسلامية بعد ضمها إلى الروسيا .

فهل أخذت مدام ديفونشير أن اسم أنس هو لكل من يسكن أو يأتى من نهر الدانوب ؟ أم كيف تنسب الظاهر برقوق إلى هذه الجهة وتاريخه الحافل معروف بالتفصيل بدليل مجىء والده وأخوته وأخواته وبعض أولادهم واستبطانهم مصر بعد سلطنته ؟ وجميع المصادر المعاصرة تقرر فى كل مرة يحضر فيها واحد منهم أو بعضهم بأن حضورهم من بلاد الجركس وأنهم كانوا مسلمين وماتوا مسلمين .

أحمد رمزى

اقتراح :

يخطب الخطيب فيصفق الناس أو يدّعون فيعرف ما يحبون وما يكرهون ، ويغنى المغنى فيهتف السامعون أو يسكتون فيدرك إن كانوا يطربون أو يكتئبون ، وتصدر المجلات ويكتب الكاتبون . فلا يدرون أرضى القارئون أم يسخطون .

فلماذا لا تسنّ الرسالة سنة جديدة يعلن بها القراء عما رضيهم ليصلوا إليه . ويعلم به الكتاب فيكثروا منه ؟ ثم إن الرسالة اليوم على أبواب تطور جديد فى جوهرها ومظهرها . وإصلاح شامل تستكمل به قوتها . وتحتل مكانها فلماذا لا تشرك القراء معها ، (وهى لهم وهم لها) فى وضع منهاج هذا التطور ، ورسم طريق هذا الإصلاح . فتسأل كل قارىء (١) عما يعجبه من الرسالة لتزيده له (٢) ومايكرهه لتخلصه منه (٣) وما يؤمله لتحققه له.وتؤلف لجنة لفحص الأجوبة وترتيبها وإعلان نتيجتها ونشر الجيد المدلل منها ؟ ما هو رأى الرسالة ؟[1]

على الطنطاوى

(١) « الرسالة » : توافق على هذا الاقتراح .



الله ...

تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد

بقلم الأستاذ محمود الخفيف

هـذا كتاب جليل القدر من ناحيتين : ناحية موضوعه وناحية كاتبه ...

ولست أجد فى وصفه خيراً من أن أقول إنه كتاب عظيم ؛ والحق أن هذا الكتاب لو صدر فى أى لغة لكان بين كتبها من أعلام الكتب ولأثار من اهتمام المفكرين والقراء ما هو خليق بأشباهه من الكتب الفذة ، وإنه ليسرني فى هـذا المجال الضيق أن أتحدث حديثاً موجزاً عن هذا الكتاب هو أقرب إلى التحية منه إلى النقد .

يحق لكتاب العربية من زمن طويل أن يستبشروا بكل ما يكتب العقاد ، فقد اتفق له من الخواص ما يجعله بغير ريب من مفاخر جيلنا هذا ، بل ومن مفاخر الفكر العربى فى تاريخه كله ، ومن هـذه الخواص أصالة الرأى واتساع أفق الثقافة ، وحـدة الذكاء وقوة المنطق ، هذا إلى لقانة عجيبة يستشف بها الحجب وينفذ بها إلى الأعماق ، فإذا أضفت إلى هذا براعة أسلوبه وقدرته على التعبير القوى الموجز الذى لا يزيد ولا ينقص عن المعنى ، وذوقه وضلاعته فى اختيار اللفظ المطلوب ، تمت لك صورة العقاد الكاتب ، وإنك لتجد هـذه الخواص مجتمعة فى أكمل صورها فى هذا الكتاب الذى أتحدث عنه .

تبقى بعد ذلك صفة هامة من صفات الكتاب ، وهى الإحاطة المدهشة بنواحى الموضوع على دقته وعلى الرغم من تشعب مذاهب القول فيه . والواقع أن كل فصل من فصول هذا الكتاب يصلح موضوعاً لكتاب ، وإنك لتخرج مع هـذا من كل فصل بما تخرج به من كتاب كامل . فالأستاذ المؤلف يعرض ما دار من الآراء حول ما يطرق من الموضوعات ، ولا يكتفى بالعرض بل يأتى بكل ما يرد به على هاتيك الآراء ، وهنا تبرز قوة منطقه وسعة أفقه وتمكنه مما يقول ، ولا يسعك إلا الإعجاب العظيم كما أنك تستشعر اللذة التى يبعثها اتساق الفكر وحسن السياق ... وتجد ذلك جليا فى فصول الكتاب جميعاً وبخاصة « أصل العقيدة » وفى « براهين وجود الله »

خصصت لقراءة هذا الكتاب زمناً ما ، فما فرغت منه حتى عدت إلى قراءته ، ثم عاودت النظر أكثر من مرة فى بعض فصوله مثل ذلك الفصل الجليل « الوعى الكونى » الذى تتمثل فيه أصالة العقاد ، ومثل « البراهين القرآنية » التى ترينا كيف يغوص العقاد فيخرج بما يطلب من المكنونات والخفايا ...

ولقد قرأت فى الإنجليزية كثيراً من الكتب التى تناولت مثل هذا البحث ، وأشهد فى غير مجانبة للحق أنى ما ظفرت فى أحدها بمثل ما ظفرت به فى هـذا الكتاب من الإلمام والاستيعاب ، وإنى لأعجب كيف يجتمع هذا كله بين دفتى كتاب لا تزيد صفحاته على الأربعمائة ، ولكنه فن العقاد ...

وبعد فهذا كتاب ينبغى أن يقرأه المؤمن ليزداد إيماناً مع إيمانه ، والحائر ليجد سبيل هدايته ، والمتشكك ليطرح شكه ، والجاحد ليعلم علم اليقين أنه أسرف على نفسه بجحوده ؛ هذا ما تركته فى نفسى قراءة هـذا السفر الجليل ، ولعلى بعد ذلك لم أوف على الغاية مما أحببت أن أقول .

ولا يفوتنى أن أشير إلى شىء آخر راقنى فى الكتاب كله ، ذلك هو منطق ترتيب البحث وتأليف الكتاب ، فأنت تخرج من فصل إلى فصل كما تنتقل من فكرة إلى فكرة لها أوثق الصلة بها ، بحيث لا تستطيع أن تقدم منه فصلا على فصل ؛ يضاف إلى ذلك أنه ليس بين هذه الفصول المتساوقة ما يشعرك بأن فى هذا الموضع أو ذاك فصلا ناقصاً كان يجب أن يكون ...

بحث الأستاذ فى أصل العقيدة الإلهية وتطورها وتكلم عن الوعى الكونى كتمهيد للبحث فى ذات الله ، وفكرة الوعى الكونى هـذه من أجمل وأروع ما سور العقاد ؛ واستعرض الكاتب بعد ذلك الأديان القديمة فى مصر والهند والصين واليابان

وفارس وبابل واليونان كلا منها فى فصـل ، ثم عرض الأديان السماوية قبل الفلسفة وبعدها ؛ وألمع إلى التصوف ، وانتهى إلى براهين وجود الله العقليـة منها والنقلية ، وختم كتابه الجليل بكلمة فى آراء الفلاسفة المعاصرين وفى العلوم الطبيعية وعلاقتها بالمباحث الإلهية ...

ومن هذا يدرك القارىء كيف كان بناء الـكتاب على هذه الصورة من براعة المنطق .

تحيتى للأستاذ الـكبير مشفوعة برجائى أن يزيدنا من ذخائره الطيبة الفذة التى نحن أحوج ما نـكون إليها ، والتى يحق أن تفخر بها المـكتبة العربية .

الخفيف

فى فلسطين العربية

(تأليف الأستاذ محمد يونس الحسينى)

تعتبر فلسطين فى هذه الأيام مشغلة الأذهان فى العالم العربى ، لهذا تمتلىء النفوس للهفة إلى معرفة كل شىء عن تلك البقعة المقدسة التى هى مثار ذلك الخلاف المنيف ، وليس هذا الكتاب فى الواقع إلا تقريراً ضافياً وافياً عن طراز الحياة العربية القائمة فى فلسطين ، وقد قدم المؤلف الفاضل لشرح هذه الحقيقة فى كتابه بمقدمات تاريخية مفيدة عن بيت القدس وعن فتح العرب لفلسطين وما كان لذلك القطر من شأن على عهود الدول الاسلامية المختلفة ، ثم انتقل من هذا إلى الحديث المستفيض عن الحياة الاقتصـــادية والاجتماعية والثقافية على نهج علمى يعنى بالحقائق و إيراد الأرقام وعقد المقارنات ، ثم شرح الصلة بين هذه النواحى و بين مستوى المعيشة والحياة التى يحياها أبناء فلسطين العرب فى هذه الآونة .

فالمؤلف الفاضل قد سد بكتابه هذا حاجة عند أبناء العروبة وصور لهم ناحية كان من الواجب أن يقفوا عليها ويتفهموها لأنها فى الواقع الأساس لفهم المشكلة الفلسطينية والعمل على إنقاذ ذلك القطر العربى من براثن الاستعمار والطغيان وإنه لعمل يذكره له وطنه ويشكره له سائر أبناء العروبة .

الحكر فى مصر

(تأليف عثمان بك فهمى)

والحـكر فى مصر ناحية من النواحى التى تشغل الأذهان فى الدوائر القضائية والحـكومية نظراً لـكثرة ما يجد فيها من المشكلات ثم ما يكون فى ذلك من اختلاف فى الرأى والتقدير ، وقد عرض المؤلف الفاضل فى كتابه هذا إلى هذه الناحية فتناولها تناول الباحث المحقق والخبير المدقق ، إذ عنى بالحديث عن عقد الحـكر وما يحدث من الخلاف فى تطبيقه وأتى فى هذا على وجهات النظر الواردة فى الفقه وفى القانون وفى العدل ، وصحح ما هو شائع فى التطبيق من الأخطاء الشائعة والاعتبارات التى تصطدم بالواقع ونازع وزارة الأوقاف ما تدعيه فى عقد الحـكر منذ خمسين عاما وختم بحثه بالمطالبة بإبعاد القضاء عن نظر مسائل الأحكار . وإن هذا الـكتاب بموضوعه هذا وبما اشتمل عليه من الدقة والعمق فى البحث يهم رجال الفقه والقانون والمعنيين بمسائل الأحكار بصفة عامة بل انه يعتبر مرجعاً وافياً ومصدراً نافعاً فى الاعتماد عليه .

محمد فهمى عبد اللطيف



الاختيار الذى كسر قلبي

معربة عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى

« ماذا يجب أن تعمل المرأة إذا هى ووجهت بهذه المشكلة؟ بل ماذا تستطيع أن تعمل ؟ وهل هناك قانون يحدد الصواب والخطأ تستطيع أن تسترشد به ؟ »

سألتنى صاحبتى ، بعد أن خرجنا من دار السينما على أثر مشاهدتنا الرواية القوية « أنا كارنينا » :

— كيف استطاعت ذلك ؟ لقد كانت القصة رائعة حقاً وقد مثلت تمثيلا مدهشاً ، ولكننى لا أستطيع أن أصدق أن أية أم يمكن أن تتخلى عن طفلها جرياً وراء رجل ما بلغ حبها ذلك الرجل ما بلغ من عنف ومن يأس !

فلم أقل شيئاً تعقيباً على كلمات صاحبتى ، ولكن يدى المختبأتين فى قفازيهما تشنجتا وانطبقت شفتاى انطباقاً محكما، ومن أين لها أن تتبين ذلك الألم الصامت الذى يمزق صدرى ويلهب رأسى ، فالنساء اللواتى يجتمعن فى الشرق الأقصى ويتحدثن ويثرثرن يصطنعن الصداقة ولكن لأغلبنا أسراراً يحتفظن بها فى أعماق قلوبهن لا تستطيع هذه الصداقد المزعومة أن تفض خاتمها .

لقد تزوجت من « رونى كولبرن » لأننى كنت أحب « تيد بورتر » حب جنون ويأس. وليس لهذا التصرف من معنى معقول، على أن أشد من هذا بعداً عن كل معنى معقول أن « تيد » كان يحبنى وكان ، بعد أن تنتهى السنوات الثلاث المفروض عليه أن يقضيها فى الخدمة فيما وراء البحار ، طليقاً من كل قيد يحول دون زواجه منى . ولقد انتظرته سنتين من هذه السنوات الثلاث قضيتهما فى التلهى والتروض مع الشبان الآخرين ، ولكننى احتفظت فى أثنائهما بشفتى وجسمى وقلبى « لتيد » بعد عودته .

لقد كان ذلك أمراً شاقاً على ، بعد أن نعمت سنتين بقرب « تيد » وجسمه وقبلاته وضمات ساعديه ، ولكننى ظننت أننى أستطيع تحمل هذه التجربة القاسية ، لقد كان ذلك واجباً على حتى أكون أهلا « لتيد » فلقد كان يحارب الوحدة وحرارة جو الحمى ، لا يجد حتى فتاة تواسيه أو شراباً ينعشه ، لقد كان « تيد » قوياً، وكان الرجل الذى لا يحب غير امرأة واحدة — وكنت أنا هى تلك المرأة !

كان الله فى عونى ! فلم أكن أرغب فى إنسان غير « تيد » ولكن لم يكن لى مثل قوته . وكان « رونى كولبرن » ، الذى قابلته فى أثناء السنة الأخيرة من افتراقنا — إذ لم يبق غير اثنى عشر شهراً يعود « تيد » فى نهايتها إلى الوطن — كان رونى هذ شديد الإصرار والالحاح. وكان طروباً جذاباً فى أسلوب شيطانى. وقد صمم على أن أكون له . ولعل جريان دمى كان يزداد سرعة كلما دنا موعد رجوع « تيد » لذلك أصبحت لا أملك شعورى كلما لمسنى « رونى » ، وحدث فى ذات ليلة قضيناها فى رقص وبهجة رائعين أن رجانى فى توسل أن أسمح له « بقبلة واحدة » وإذ مال رأسى إلى الوراء شعرت بشفتيه تضغطان شفتى فكأنما كانت هذه القبلة طعاماً قدم لجائع تقتله المسغبة .

ووقفنا هناك متعانقين فى الشرفة وهو لا يفتأ يقول :

— ليس يضيرنا أننا لم يعرف أحدنا الآخر إلا منذ شهر واحد. فهذا هو الحب يا عزيزتى « بام » وستتزوجين منى ... فى الحال.

وحاربت رغبته الملحة ثلاثة أسابيع كنت فى أثنائها أتقى الاجتماع به ما استطعت ، وقلت فى نفسى إننى مجنونة حمقاء . ولكن غيبة « تيد » قد طالت حتى أننى ، ولو حننت إليه وعلى الرغم من كل ما كان بيننا ، لا أستطيع أن أذكر حتى ولا شكل وجهه . أما « رونى » فكان قريباً منى ، وكان شخصاً حقيقياً أراه وألمسه وأشعر بوجوده وهل كان شيئاً غير الحب ذلك الذى سرى فى كيانى سريان الكهرباء عندما ابتسم لى وأمسك بى ؟

وانتصر « رونى » آخر الأمر ، وقضينا إحدى « العطلات » الأسبوعية مختفين عن أعين الناس وتحت تأثير شعور لذ مبهج مخيف، أقسمت أيماناً لم أقصد إلى الوفاء بها ، وكل ما كنت

أعزى به نفسى فكرة يائسة سخيفة هى أننى إن كنت قد أخطأت فإننى أستطيع أن أسترد حريتى بالطلاق . فكان كل ما حدث حلماً جنونياً مرعباً ، تدرج من دهشة الذين علموا بأمر زواجى ، إلى قضاء شهر العسل فى المسكن الذى استأجرناه خصيصاً له ، ثم بخروجنا أمام الناس متأبطين — فكان حلماً خاطفاً غير مكتوب له الدوام .

ولم يكن بد من أن أستيقظ من ذلك الحلم فأدرك أننى قد تزوجت من رجل غريب عنى فى كل شىء . لقد كان لطيفاً يسر الإنسان أن يكون معه ولكنه لم يكن « تيد » . ولقد كنت كذلك المرأة الوحيدة « لرونى » أيضاً ولكن على غير الطريقة العمياء المنطوية على الوله والعبادة التى كانت تظهرنى فى عين « تيد » مثالا لكل شىء جميل .

ولم يلبث « رونى » أن نظر إلىّ النظرة العادية إلى الشىء المألوف ، لا يقبلنى إلا نادراً إن خطرت له فكرة التقبيل على بال ، وكان من النادر أيضاً أن يقول لى إنه يحبنى ، ولم يقصد قط النظر إلى ملابسى أو شعرى ، ولم يكن ليبدى له من الإعجاب ما تشعر كل فتاة بأنه من حقها الواجب أداؤه لها .

وفى كثير من المرارة والألم ذكرت كيف لم أكن لأبدل ملبساً أو أضع دبوساً فى شعرى دون أن يهمس « تيد » فى دقة « يا للسماء ياحبيبتى كيف تستطيعين أن تنوعى جمالك بهذه الوسائل المديدة ؟ » . وذكرت كيف كان يندر أن يتركنى أغيب عن نظره ، وكيف كان دائماً إذا ما اجتمعنا لمس يدى أو شعرى أو شفتى ... يا لها من ذكرى ... فأواه يا تيدّ أواه ...

وبعد أسبوع واحد يصل « تيد » إلى الوطن وسيتجول فى الطرقات المألوفة لنا فى غير صحبتى وامله يذهب لزيارة أمى ، رافع الرأس متألماً ومتذكراً — كما أتذكرانا هنا فى هـــذه البلدة الصغيرة فى مقاطعة نور ثمبرلاند التى أخذنى رونى إليها بعد زواجنا .

لقد كانت الأزمة شديدة لذلك حمد « رونى » الله إذ وفق إلى مركز كاتب فى أحد الجراحات ، وهو عمل صغير يتقاضى أجراً عليه ثلاثة جنيهات فى الأسبوع ، فاستأجرنا لأقامتنا مسكنا رخيصاً وعشنا عيشة رثة . فأين الآن ما كنت أتوقع من حياة ساحرة لقد أردت أن أعود إلى بيتى إلى أبى وأمى و « تيد » ولكن على الرغم من غضبى مما دفعنى إليه رونى ومن إهماله إياى بعد ذلك كنت أشفق عليه ، فلقد كان نصيبه من قسوة هذه الحياة مثل نصيبى منها : فمن شجار بيننا إلى حياة الفقر التى نحياها إلى اضطراره للعمل الشاق ساعات طويلة من اليوم . وكنت إذ ذاك كل شىء له فى الوجود .

إن الحياة لغز عسير الحل ، فقد كان يجب ألا أتزوج منه ، وكان يجب ألا أستسلم أبداً للشفقة فى بقائى معه حتى أصبح من العسير ، على كل حال ، أن أتركه ، لقد كان « تيد » فى حاجة إلىّ وكان مستعداً لأن يرجعنى إليه فى الحال ، وقد علمت ذلك من الخطاب العجيب الذى بعث به إلى متحدثاً فى موضوع زواجى وفيه يقول : « إن سعادتك هى كل ما أعيش له ، يا « بام » . ولن يحل أحد مكانك من نفسى ، وسأنتظرك إلى الأبد ، فإذا أردتنى مرة أخرى أو احتجت إلى ... »

إن أردته ؟ أو احتجت إليه ! إننى لم أكن أشد حاجة إليه مما أنا الآن ، ولكننى لم أكن لأستطيع الذهاب إليه وأنا أحمل جنين « رونى » فى أحشائى .

لقد فرح « رونى » بهذا الخبر ، وقال : « إن هذا الوليد سيبقينا معاً » تخيل إلى أن هذه الكلمات معناها الحكم بالسجن الأبدى ، فشعرت بما يشبه الجنون ... الأمومة ... الرباط الوثيق ... وحماسة رونى الفرحة كل ذلك أثار عوامل غضبى . فقلت :

— وكيف يمكننا حتى أن نكفل هذا الوليد ؟

على أننا قد استطعنا ذلك على صورة ما . وقد أصاب رونى فى ذلك كما أصاب فى قوله إن الوليد سيبقينا معاً — فى بيت واحد ، فلقد بقينا معاً بالفعل سنتين على الأقل ، سنتين امتزجت فى خلالهما الفاقة فى حياتنا بنشوة السرور .

لقد أحببت أنا ورونى ابنتنا الصغيرة « سو » حباً مفرطاً ، ففى اللحظة التى وضعت فيها هذه الوليدة التى لا يزيد حجمها على حجم القطيطة ، بين ساعدى ، تحللت جميع عوامل البغضاء والغضب التى تملكتنى تسعة أشهر طوال إلى شعور فياض بالرقة والمحبة . لقد كان صغر حجمها ! ومعجزة وجودها وجمالها ! كان كل ذلك باعث حب لا يطاوله حب ولا تدانيه أية عاطفة إنسانية . كذلك قبضت « سو » على قلب « رونى » بقبضتها الصغيرة ،

في حين أصبحت ، أنا التي كنت حبيبته من قبل ، ولا صفة لي إلا أنني أم ابنته ولا مهمة لي إلا السهر عليها والعناية بأمرها ، فقد انصرف حبه كله إلى أرجوحتها الصغيرة . فكان ينفق من المال مالا قبل لنا به على ابتياع اللعب والملابس الصغيرة ، وكان في أغلب الأوقات يجلس في الظلام إلى جانبها بعد أن تستغرق في النوم ، وكان يقضي الوقت الطويل في ملاعبتها معتقداً أنه وحده هو الذي علمها المشي والكلام ، وكان شديد التفاخر بأنها تشبهه بأنفها الشامخ ، وابتسامتها الساحرة ؛ فكانت حسبه من الحياة كلها ، وقد احتلت من نفسه مكمن العواطف والخيال ولم أكن أقل حباً لابنتي من أبيها لها . ولكنه كان حباً من طراز آخر . فلم يبد لي صواب القول بأن ثمرة الحب تضع حداً للاحساسات ، أياً كانت ، التي حملت اثنين على الاقتران أحدهما من الآخر . فقد خيل إلي أنه قد قدر لي أنا وروني أن نعيش متلازمين إلى الأبد ، ولكي أرفه من حياتنا ظننت أنه يجب علينا أن نأخذ بهذه الفكرة ، وأقسم إنني قد حاولت ذلك ، ولكن جمود روني وعدم قابليته لأن يفهم ما أنا محتاجة إليه غير البيت والطفلة والعلم بأنه مخلص لي وفي ، كل ذلك أشعرني احتقاراً لنفسي حرمني النوم فكنت أبكي وأناقش وأتوسل ولكن ذلك كله لم يكن إلا ليزيد العلاقة بيننا سوءاً .

ثم إذا أدركت أن روني لا يستطيع أن يغير ما به اعتزمت أن أكتفي بحب الأمومة . فيجب أن أكتفي بملاحظة « سو » وهي تنمو من طفلة قوية البنية صحيحة الجسم إلى بنية صغيرة مرحة حلوة المحيا ، ولقد علمتها بعض الأغاني والشعر الخفيف ، وكنت أتروح معها كل يوم ماشيتين نجمع في الشتاء أوراق الشجر الزاهية أو نتزلق على الجليد — وكنت أشعر بالكبرياء تملأ نفسي عندما يتلفت الناس إليها فيبتسمون معجبين بخطواتها القصيرة السريعة وشعرها الناعم الذي يتلاعب به الهواء وعينيها الجميلتين البراقتين . لقد كانت جميلة حساسة سريعة الحركة بشوشة الوجه شديدة المرح ... لقد كانت ابنتي .. وهي لي وحدي آه يا « سو » ... « سو » عانقي أمك يا ابنتي واملائي حياتها الموحشة سعادة وعزاء .

كان حب « سو » يعزيني في أغلب الأحيان ، ولكنه لم يكن كل العزاء الذي تتعطش نفسي إليه ، فلقد كنت امرأة كما كنت أماً . وكنت لا أزال صغيرة جذابة كمثل ما كنت يوم تركني « تيد » والآن أريد « سو » وأريد « تيد » ، ولكني كنت أعلم — كمن وقع في الفخ — أنني لن أستطيع أن أجمع بينهما . فإن روني لن يتخلى عن « سو » أبداً، ولقد كان ينذرني بذلك كلما حدثته في أمر الطلاق فكان يقول : « حسناً يا بام لك أن تطلبي الطلاق إذا كنت غير قادر على إسعادك — ولكنك لن تأخذي سو أبداً » .

ومع ذلك كان تفكيري في «تيد» يعذب نفسي ، لقد كنت أحلم به في الليل وفي النهار . لقد كنت أتساءل : أين هو؟ وحيثما كنا نذهب — وكنا كثيراً ما نغادر البيت — كنت أبحث عنه بنظري بين الجماهير ،حائرة ، آسفة . يقفز قلبي كلما رأيت رجلا طويل القامة عريض الفك مجعد الشعر ... إذ كنت أتخيله « تيد » .

كنت أشعر أنني مندفعة في طريق الجنون . ولو أنني عرفت على الأقل أخباره وطريق حياته لاطمأنت نفسي وهدأت أعصابي فصممت آخر الأمر على أن أكتب إليه،معنونة الكتاب بعنوان بيته القديم الذي لا يزال في رعاية أبويه اللذين لا شك في أنهما يعرفان مقره الجديد وسيحولان الخطاب إليه .

(لها بقية)

عبد الحميد حمدي

مطبعة الرسالة